العُمَرِيَّةُ

في رحاب عمر بن الخطاب

محمود القليني

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

<table>
<tr><th colspan="4">البيـــانـــات</th></tr>
<tr><td>عـوان الكتاب– Title</td><td colspan="3">العمرية في رحاب عمر بن الخطاب</td></tr>
<tr><td>المؤلف - Author</td><td colspan="3">محمود القليني</td></tr>
<tr><td>الطبعة — Edition</td><td colspan="3">الأولى .</td></tr>
<tr><td>الناشر - Publisher</td><td colspan="3">العلم والإيمان للنشر والتوزيع .</td></tr>
<tr><td>عنوان الناشرAddress</td><td colspan="3">كفر الشيخ - دسوق - شارع الشركات ميدان المحطة
تليفون : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١
فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١</td></tr>
<tr><td rowspan="2">بيانات الوصف المادي</td><td>عدد الصفحات
Pag.</td><td>مقياس النسخة
Size</td><td>التجليد</td></tr>
<tr><td>٢٠٤</td><td>٢٤,٥ x ١٧,٥</td><td>مجلد</td></tr>
<tr><td>المطبعة - Printer</td><td colspan="3">الجلال .</td></tr>
<tr><td>عنوان المطبعة- Address</td><td colspan="3">العامرية إسكندرية.</td></tr>
<tr><td>اللغة الأصل</td><td colspan="3">اللغة العربية .</td></tr>
<tr><td>رقم الإيداع</td><td colspan="3">٢١٢٨-٢٠٠٨م</td></tr>
<tr><td>الترقيم الدولي .I.S.B.N</td><td colspan="3">977- 308 - 182 - 9</td></tr>
<tr><td>تاريخ النشر - Date</td><td colspan="3">2008</td></tr>
</table>

الإهداء

لقد أخذتُ من حقوقهم الكثير؛ لأوفى قليلا من حق

(عمر بن الخطاب) علىّ ...

وهأنذا أرد لهم بعضًا مما أخذته ...

لعلهم يرضون إلى زوجتى وولدىّ ...

أحمد ورشاد .

محتويات الكتاب

الغضب النبيل

وأنا موشك على الانتهاء من كتابي هذا، إذا بموجة من الغضب تجتاح الشعوب الإسلامية ، وإذا بتلك الشعوب تعبر عن غضبها كل حسب الأسلوب الذي اختاره ، والذي يتفق مع تفكيره ونفسيته ، وقد تفجرت براكين الغضب بسبب رسومات كاريكاتيرية تناولت سيدنا وسيد الإنسانية جمعاء ، محمدًا ﷺ ، نُشِرتْ في صحيفة دماركية وتتابعتْ بقيةُ الصحفِ الغربيةِ بعد ذلك على النشر ، والذي زاد من تأجج نيران الغضب إصرار الدمارك والدول الأوربية على هذا النشر ، لأن هذا يدخل - في عرفهم - في نطاق حرية الرأي وهناك لا حجر على الحرية بكافة صورها ، لذلك رفضوا أن يتنازلوا عن الحد الأدنى من التراضي والذي طلبته الشعوبُ الإسلاميةُ وهو (الاعتذار) .

وما حدث على الصعيدين الإسلامي والغربي يعكس أزمتين ، أو يجسد مأزقين تعيشه الشعوبُ الغربيةُ والشعوبُ الإسلاميةُ على حد سواء .

أما ما تعيشه الشعوب الغربية ومعها أنظمتها فينحصر في التالي :

- إنهم لا يفهمون الحرية حق فهمها ، لا حرية القول ، ولا حرية الفعل ، ولا حرية الفكر ، أو قل إنهم يفهمونها حق فهمها ولكنهم يقصرونها على أنفسهم دون غيرهم لأنهم ينزلون أنفسهم منزلة ، والآخرين دون تلك المنزلة
- إنهم لا يقدرون العظمة الإنسانية ، فقد أجمعتْ الإنسانية واجتمعتْ منذ زمن بعيد على أن العظيم في أسمى معانيه وأرقى درجاته هو الرجل الذي استطاع بما أوتي من نبل وشرف وإرادة وتصميم وشجاعة وجرأة وتضحية ورأفة ورحمة أن يخرج الإنسانية من الظلمات والظلم والقهر والاستبداد والطغيان إلى النور والعدل

والخير والحق ، ورفع من كرامة الإنسان بغض النظر عن دينه أو موطنه أو لونه **والبرهان الصادق والدليل الساطع** على تلك العظمة ، أن ملايين من البشر فى زمنه وبعده أخذتْ تهوى بكل حب واقتناع إلى عقيدته وأقواله وتعاليمه ، وقلوبهم قبل عقولهم تذكر اسمَه فى أحلك اللحظات وأظلم المواقف ، لتستمد منه مددًا وعونًا ، ينير لها تلك اللحظات وييسر لها تلك المواقف ، تلك المواصفات التى لا يجادلُ فيها منصفٌ لا تنطبق بحقٍّ وصدقٍ - وبدون تعصب أو تحيز - إلا على رجل واحدٍ هو محمد - ﷺ - ولسنا الذين نقول ذلك بل مفكر وكاتب من كتاب الغرب وهو (توماس كارْلايل) .

يقول " لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دينَ الإسلام كذبٌ وأن محمدا خداعٌ ومزورٌ وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون [1] من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان أحدُكم يظنُّ أن هذه الرسالة التى عاشتْ بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدًا . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وضلالة كان الأولى بها ألا تخلق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم ! وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة! (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئًا ألبتة من

١- يبلغ عدد المسلمين فى العالم حسب آخر إحصاء حوالى مليار ونصف مليار تقريبا .

أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ؟ وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبا والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتًا من الطوب فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وإنما هو تلٌّ من الأنقاض وكثيبٌ من أخلاط المواد . نعم وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبتْ أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب- والله - ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة- والله - ومصاب أن ينخدع الناس شعوبًا وأمما بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجه من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به"[1] .

✍ (وعلى ذلك فلسنا نعد محمدًا هذا قط رجلا كاذبا متصنعًا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك

١- الأبطال - توماس كارلايل - صفحة (٥٨- ٥٩) .

أمر الله وذلك فضل يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض القوم الكافرين) [1]

✍ (وعجيبة وايم الله أمية محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور - من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره" [2] .

✍ " وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ،لا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزيمة بعيد الهمة كريمًا برًا ، رءوفا تقيا فاضلاً حرًّا - رجلا شديد الجد مخلصًا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله – هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضيء الطلعة حسن القامة زاهي اللون له عينان سوداوان

١- المصدر السابق - صفحة (٦١-٦٢) .
٢- المصدر السابق - صفحة (٧٠) .

تتلألآن . وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حالة غضبه ، وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر. نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عاد لا صادق النية ، كان ذكى اللب شم الفؤاد .

لو ذعيا كأنما بين جنبـ   يه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا نارًا ونورًا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

" لقد كانت فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وأربة ونهى أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه وكيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات".

" لقد كان زاهدًا متقشفًا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وإنهم يذكرون – ونعم ما يذكرون – أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس و الطعام، مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دائب فى نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت

رجل عظيم- وربكم- وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحترامًا وإكبارًا وإعظاما ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم- وايم الله- بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من - تضاف بنانه ؟ وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبًا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال " [١] .

- "وإني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يك متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة وكان يعرف لنفسه قدرها ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران " [٢] .

هذه بعض الأقوال - وليس كل الأقوال - لكاتب ومفكر غربي ، لا يؤمن بمحمد ﷺ ولكنه مقتنع - وكل الشواهد تؤيد ذلك - أنه رجل عظيم ، ولا مراء في ذلك وحق على

١- المصدر السابق - صفحة (٩١- ٩٢) .
٢- المصدر السابق - صفحة (٩٢- ٩٣) .

الإنسانية للعظيم أن توقره وتحترمه ، وتغض الطرف عنده ، لا لشىء إلا لعظيم دين وأيادى العظيم على الإنسانية ، لأن كل هذا الأمن والسلام والتقدم والرخاء والرفاهية التى تنعم به الإنسانية بفضل هؤلاء العظام وأنه متى واجهت الإنسانية العظماء بالجحود والنكران والتشوية والسخرية والاستهزاء والاستخفاف فإنها تقوض أهم أساس من أسس بقائها .

- إنهم ينظرون إلى تلك الملايين من البشر - المسلمين - أنهم لا حول لهم ولا قوة ، لا وزن لهم ولا ثقل فى عالم اليوم ، ولا يقدمون شيئاً للعالم المتحضر بل هم عالة وعبء عليهم .
- إن العقيدة التى يدين بها الملايين من المسلمين ، بدأت تمثل لهم عقبة فى إعادة تشكيل العالم ، وشعوبه حسبما يريدون ، واكتشفوا فى وقت متأخر أن تغيير تلك العقيدة لا ينفع معها ترغيب ولا ترهيب ، وأنها راسخة فى النفوس كرسوخ الجبال بل أشد وأقوى .
- أباحوا لأنفسهم العبث بالمفاهيم والمسميات لتتوافق ومصالحهم ، وهذا أخطر ما يكون ؛ فالتمسك بالهوية نوعٌ من التأخر والجمود ، والتمسك بالعقيدة نوع من الرجعية والتخلف ، والتضحية فى سبيل مبدأ سام نوع من الإرهاب ، وهذا من شأنه أن يحطم جسور التفاهم التى قد تبنى بينهم وبين الشعوب الإسلامية .
- ما زال الفكر الاستعمارى يعشش فى زوايا عقولهم ، وبالرغم من أن الإنسانية تخلصت من هذه النزعة البغيضة ، إلا أن الأحداث مؤخرًا أظهرت أن تلك الشعوب على استعداد أن توافق أنظمتها وتؤيدها أن تحتل وتغزو بلدًا آخر تحت أى مسمى من المسميات ، والشعب المحتل لا يخرج عن أن يكون شعبا من

الشعوب الإسلامية ، طالما أن هذا الاحتلال سيصب في مصلحتهم ويحقق مزيدًا من الرخاء والرفاهية .

- نصَّبوا من أنفسهم أوصياء على الشعوب الإسلامية ، في أعمالهم وفكرهم وتعليمهم وصناعتهم وتسليحهم .. إلخ ... والويل كل الويل لمن يفكر أن يخرج عن تلك الدائرة الحديدية ، التي رسموها وأجبروا تلك الشعوب أن يعيشوا داخلها .

أما ما تعيشه الشعوب الإسلامية ومعها أنظمتها فينحصر في التالي :

- إن كل الشعوب الإسلامية تخلصت من الاستعمار الذي كان يجثم على أراضيها منذ زمن بعيد ، إلا أن البعض منها مازال تابعًا بشكل أو بآخر لدولة أجنبية ويدور في فلكها ، وهي قانعة بتلك التبعية .
- إن تلك الشعوب الإسلامية لم تحقق قدرًا من التقدم والتطور والتنمية ما يمكنها أن يكون لها مكان وصوت مسموع في عالم اليوم ، مع أن شعوبا أخرى أقل في الإمكانات قد حققت قدرًا كبيرًا من التطور . وأصبح لها مكانة متميزة ، وحينما تقارن الشعوب الاسلامية ... تفقد الثقة في نفسها ، ومن يفقد الثقة في نفسه يعجز عن الحركة .
- هناك أزمة ثقة بين الشعوب الإسلامية وأنظمتها ، فليس هناك تطابق بين الاثنين ، فالشعوب تريد شيئاً والأنظمة تريد أشياء أخرى ، لاختلاف توجهات كل منهما .
- تلك الأنظمة تجد نفسها واقعة بين المطرقة والسندان ، فهناك التزامات أمام شعوبها من المفروض أن تنفذها ، وهناك أيضًا معاهدات واتفاقات تربطها

بالعالم الغربى . وتحاول تلك الأنظمة أن تحقق - ولو الحد الأدنى من التوافق بين الاثنين ، وهى بذلك تحاول فعل المستحيل وتبدد الكثير من الجهد والوقت .

- إن تلك الشعوب تتعرض لمحو ذاكرتها ، وطمس تاريخها ، والعبث بالثوابت التى تربطها بالأرض والهوية ، لجعلها تفقد اتزانها والإحساس بذاتها ليسهل بعد ذلك تشكيلها .
- إن تلك الشعوب - أو بعضها - تعتمد فى جزء كبير من مرافق حياتها على الغرب فى المأكل والمشرب والملبس والعلاج ، وهذا الاعتماد غير موقوت بزمن محدد ، ولا تجد غضاضة فى ذلك . وقد يرضى هذا فيها نزعة الكسل والتراخى والميل إلى الراحة والدعة .
- هناك قيم ومفاهيم ومبادئ مبتورة أو مغيبة أو مطموسة إما عن جهل أو غفلة أو تعمد ، وتلك القيم والمفاهيم والمبادئ من أصول الدين مثل الحرية والشورى والعلم والعمل . ومواصفات من يلى الأمر وحرمة دم المسلم مهما كان انتماؤه ومهما كان اختلافه مع الآخرين وواجبات الشعوب الإسلامية نحو بعضها البعض.
- الوعى الفكرى والثقافى لدى أغلب الشعوب الإسلامية فى حده الأدنى لذلك من السهل التأثير فيها وتوجيهها والسيطرة عليها فكريا ، مع أن القيم المهمة فى الدين واضحة مثل (اقرأ- اسأل - ناقش- اعتبر - فكر - تفكر)

إذن هناك أزمة ، وهنا أزمة ، وقاموا بتصديرها إلينا ، كأى شىء يصدرونه لنا، ونحن استوردنا الأزمة ، كأى شىء نستورده منهم ، وحدث التصادم ، ونتج شرر، وأشعل نيران الغضب .

وكـان هنـاك - فـى الغـرب - تعجـب واسـتنكار ، فقـد تعـودوا علـى أن كـل شـىء مستباح لهم ، لا سيما إذا كان ينتمى للشعوب الإسلامية ، الأرض ، السيادة والفكر والحرية والكرامة والدم وهذا حادث منذ زمن ، ولم تغضب الشعوب الإسلامية . فلم تفجرت براكين الغضب ؟!! هنا - وهنا بالذات -.

بالنسبة للشعوب الإسلامية فقد تنازلوا عن كثير من مقدراتهم وفرطوا فى قضايا مصيرية ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا على الآخرين ... وكان الدين هو المعقل الأخير - ولا معقل بعده - الذى لا يجوز بأى حال من الأحوال السماح بالمساس به فهو الشىء الوحيد فى حياتهم النقى الطاهر السامى المقدس ، الذى يستمدون منه الإحساس بإنسانيتهم والشعور بآدميتهم ، يجدون فيه العزاء والسلوى ، من هذا الانسحاق والانهزام والتراجع والتقهقر فى العالم ومن العالم ، إنه مبدد للقهر والجبروت والطغيان الذى يجدونه فى حياتهم ، إنه ينير تلك الأنفاق المظلمة ويحطم حدودها لتزداد حياتهم اتساعًا ورحابة ووجودهم غنى وثراءً ، ويجعل لوجودهم هدفًا ومعنى ، يرفعون رءوسهم إلى السماء مبتسمة شفاههم ، نضرة وجوههم ، مشرقة نفوسهم ، مرتعشة أرواحهم سعادة وحبورًا ، يسجدون للخالق ، يسبحون بحمده وتردد خلاياهم صلواتهم وسلامهم على نبى الخير والعدل والسلام محمد ﷺ

حينما يمس أحد هذا المقدس ... لا عجب ، بل العجب كل العجب ألا تتفجر براكين الغضب .

ولكن ما علاقة هذا بالكتاب الذي بين أيدينا ؟

بالأمس اغتيل عمر ؟ قُتِلَ بيد أجنبية غادرة حاقدة مسمومة ، وضعت حدًّا للشخص ولكنها لم تستطع أن تقتل الشخصية أنهت وجود إنسان في زمان ومكان، ولم تستطع أن تمحو أو تبدد خلود ذاكرة في كل الأزمنة والأمكنة .

واليوم محاولة لتشويه صورة محمد - ﷺ - بقلم غادر حاقد ومداد مسموم لا يعرفون أن صورته - ﷺ - مرسومة بحروف من نور، داخل إطار من الطهر والنقاء تشع نورًا وسلاما وهدى في قلوب الملايين ، وإنهم لعاجزون أن يمحوا تلك الصورةَ من قلب واحد من تلك الملايين .

أبو لؤلؤة الملعون استبدل بالخنجر قلمًا ، ظنًّا منه أن ما عجز عن تحقيقه بالخنجر قد يفلح في تنفيذه بالقلم اليوم !! .

وهناك صلة أوثق بين هذا الموضوع وموضوع الكتاب . أو صاحب سيرة هذا الكتاب الغضب النبيل الذي كان يمتلئ به قلب عمر كلما نال شخصَ رسول الله شيءٌ ولو هينًا.

صلاة وسلامًا عليك يا محمد ... يا رسول السلام والعدل والخير . وسلامًا عليك يا عمر... يا من فرق الله بك بين الحق والباطل .

الفصل الأول :

العمريـــة ودوافـع الكتابـــة

العُمريةُ ودوافع الكتابة

حينما نود الكتابة عن شخصية ما ، تكون هناك دوافع دفعتْ أو حركت الرغبة فى الكتابة ، تلك الدوافع إما أن تكون متعلقة بالشخصية المكتوب عنها أو متعلقة بشخصية الكاتب ، أو بالظروف الحاضرة التى من شأنها استدعاء سيرة الشخصية لقضاء وطرٍ ما .

أما فيما يخص الشخصية المكتوب عنها ، فالدافع أن يزاح عنها غبنٌ وقعَ عليها كأن تكون قد ظُلمتْ من أبناءِ زمنها وجيلها ولم تنلْ ما تستحقه من تقديرٍ وعرفانٍ ، نظير ما قدمته للإنسانية . وكثيرة تلك الشخصيات التى ظُلِمْت بسبب عدم الاحتكام إلى المعايير الموضوعية ، وكان سيدُ الموقف آنذاك - التعصب أو الهوى أو الغيرة والحقد ، وتتواتر الأجيالُ بعد ذلك على اتخاذ هذا الموقف الظالم من الشخصية .

وتواترُ الأجيالِ على الظلم أخطرُ ما يكون ، لأنه إذا كان الذين عاصروا تلك الشخصية قد أوقعوا ظلمًا وهضمًا ، فقد فعلوا ذلك ، وفعلهم يستند إلى داوفع وسواء كانت تلك الدوافع مبررة أو غير مبررة ، تحتكم إلى العقل أو تندفع مع الهوى فهى فى نهاية الأمر دوافع دفعتهم إلى اتخاذ هذا الموقف المتجنى من الشخصية أما الأجيال التالية فليس هناك من دافع لها سوى الكسل العقلى وفتور الهمة وخراب الذمة ، واعتمادهم وتواكلهم على أقوال السابقين بدون فحص أو تمحيص.ويشتركون فى الوزر مرتين؛مرة لأنهم رددوا ما كان يردده السابقون كالببغاوات العجماوات ، ومرة ثانية أنهم ظَلموا ويظل الأمر على هذا ، إلى أن يقيض الله شخصًا ينصف المظلوم ، ويكشف الغبن ، وينسب الفضل إلى أهله .

- أما من ناحية الكاتب نفسه ، فقد يدفعه إلى الكتابة حبُّه للشخصية لأنها تجسم وتحقق المثل العليا التى ينشدها هو وأبناء جيله لاسيما وإن عزَّ وجود مثل تلك الشخصية فى الوقت الراهن ، فما عجز عن التماسه فى الحاضر قد يجده فى الماضى .
- أما من ناحية الظروف الحاضرة التى استدعتْ سيرةَ الشخصية فقد تنزلق أمة أو جماعة ما إلى خطأ ، ويضيعُ منها السبيلُ وتضلُّ ، ولا تدرى من أين وإلى أين الخروج من هذا التيه والضلال وتختلط فى نظرها الأمورُ وتتشابك ويلتبسُ الحقُّ بالباطلِ . حينئذٍ تشتدُّ حاجةُ و الجماعةِ إلى من يخرجُها من هذا المأزق إلى من يلقى إليها طوقَ النجاة، إلى من يضىء لها ليلها المظلمَ المدلهمَّ ، إلى من يهديها سبل الرشاد والسلام .
- تلك الظروفِ الحرجة التى تحيط بالأمةِ وتحدقُ بها ، تستدعى الشخصية التاريخية بقوة وإلحاح ؛ لتقتبسَ الأمةُ من أنوارها الهاديةِ ، وتتعلم من نظرتها الثاقبةِ ، وتسيرَ على هدى من فكرِها العميقِ .

وقد يسخرُ ساخرٌ من منطقى هذا ، قائلا :

ما شأن هذا الرجل الذى يبحث فى القبور عمن يخرجُ أمته من مأزقِها أو يتصفح سجلات وكتب التاريخ التى علاها الغبار ، وبليتْ صفحاتُها ، وذابتْ حروفُها ، واتخذتْها العثةُ طعامًا وزادًا لها ... فما صلح وأصلح الماضى قدْ لا يصلحُ ويعجزُ عن إصلاح الحاضر فقد تغيرتْ وتطورتْ الإنسانيةُ بشكلٍ مرعبٍ ورهيبٍ وماذا ستفعلُ تلك الشخصيةُ أو شخصياتُ وحكماءُ وعباقرةُ العالم القديم فيما جَدَّ من مشكلات ومآزق تعجزُ شخصياتُ العالم الحديث بما أوتوا من علم وخبرة ودربة عن حلها ؟؟! .

وأنا أتفق معه فيما قاله ، وأؤيده ، بل وأدعو إليه .

ولكن من قال إن الإنسانية لم تتقدم وتتطور بدون النظر إلى ماضيها والاستفادة من تلك التجارب والمواقف التى تعرض لها السابقون ؟

إن الذى صنع الحضارة الإنسانية ، وهذا التقدم المذهل تلك السلسلةُ المترابطة الحلقات من تراكم الخبرات ، إن الإنسانية كانت - ودائما - تستمد من الماضى زادًا وقوة لتنطلقَ إلى المستقبل .

إذن للتاريخ والتراث وظيفةٌ هامةٌ . وتتوقف نجاح تلك الوظيفة علينا نحن من خلال نظرتنا له ، فإذا نظرنا إليه كمحتوى ملىء بالخبرات والمواقف التى قد تُستثمر لمعالجة وحل مشكلات الحاضر فقد اكتسب أهمية قصوى" إن المحتوى التراثى لا يعنى فقط تحقيقه وحفظه ، بل يعنى - قبل كل شىء - استخلاص المعرفة الكامنة فيه وتحديد مغزاها بالنسبة إلى حاضرنا ، وكما يقول يوسف زيدان (إن الوجود الإنسانى هو عبور دائم من الماضى إلى المستقبل ، وإن كان هناك خلل فى الوعى بالماضى فلن يكون العبور إلى المستقبل إلا خبط عشواء) " [1] .

على هذا فأى دعوى تدعو إلى بتر الصلة بين الحاضر والماضى بحجة الانطلاق للمستقبل هى دعوى مغرضة ، أصحابها لا يريدون الخير لتلك الأمة ، ويريدون الضلال للإنسانية.

والتاريخ يشتملُ على عنصرين ، الأحداث والشخصيات ، وأهمها الشخصيات لأن الشخصية هى التى تحرك وتتحكم فى دفة الأحداث . فالتاريخ صنعته إراداتٌ وهو فى نهاية الأمر صراعٌ وصدامٌ بين تلك الإرادات ، وأكثرُ الشخصيات تأثيرا فى التاريخ تلك

١- الفجوة الرقمية - تأليف : د/ نبيل على ونادية حجازى - صفحة (١٠٨) - عالم المعرفة - العدد (٣١٨).

الشخصية التى أوتيت قدرًا من مضاء وصلابة الإرادة ، وطهارة النفس ورقى وسمو الهدف والمقصد " التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم- إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة ، وهوا المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنًا ، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ العالم أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام " [١].

وبالنسبة لعمر بن الخطاب فالأمور الثلاثة متوافرة :

فدافع الكتابة يتعلق به ، لأن ما كتب عنه - وهو كثير - لا يتناسب مع ما قدمه للأمة الإسلامية خاصة ، وللإنسانية عامة ، ولم تُستخلَص العبرة والحكمة من مواقفه- وإن تم استخلاص النذر اليسير - ولم تُبلور كل مواقفه وتصرفاته ، ولم يُسبر غور فكره - وهو عميق - لنخرج من خلال هذا برؤية شاملة أو بمبدأ فلسفى يجمع المتفرقات ، ويلملم الشظايا ، فهذا المبدأ من شأنه أن يفسر كأوضح ما يكون التفسير، ويؤول كأشمل ما يكون التأويل تصرفات ودوافع الشخصية، وفى دراستنا عن الشخصيات ينبغى لنا أن نبحث أو نستخلص(بؤرة)، أو (نواة) تتجمع فيها كل ما يجعل شخصية ما تختلف عن ملايين الشخصيات ، ما يخلق لها التميز والتفرد ، ما يجعل لها تأثيرا قويًا فى تغيير مجريات الأحداث ، ما يشكل من الشخصية نوعًا من (الحتمية) لفرض إرادتها ، وتأصيل وتعميق فكرها ، وحمل من حولها على تبنى أطر منطقها عن اقتناع وفهم .

١- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - ترجمة / محمد السباعى - صفحة (٧).

وأهمية استخلاص هذا المبدأ ، وما يستند إليه من فكر ما ستنتفع وتنفع الأجيال اللاحقة ، لأنه بمثابة (روشتة) طبية ، فيها توصيف للمرض وللدواء وطريقة تعاطيه ، وما ينتج عنه من فوائد ، وما قد يظهر له من أعراض جانبية

وفيما يتعلق بالشخصية ، فأنا أشعر - وأظن أن الكثيرين يوافقوننى بشعور فريد من الإعجاب والإكبار ، ولا أخفى أن هذا الشعور فى بعض الأحيان يجعلنى أرتعد ، ولا أظن أنى فى حاجة أن أزيد على ذلك .

وفيما يتعلق بالأحداث الحاضرة والراهنة التى استدعتْ تلك الشخصية فأظن أن الحالة التى تعيشها الأمة تدل على أننا ابتعدنا عن الصلاح والرشاد وموقعنا بين الأمم الآن يدل على أننا ضللنا ضلالا بعيدًا ، وأننا ضعنا وأضعنا الكثير الذى من شأنه أن يعصمنا من الخطأ والزلل ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فالأمة تنزلق داخل نفق مظلم لا تدرى إلى أين يقودها هذا الانزلاق ،هذه الظروف تضغط علينا بقوة وإلحاح أن نتبنى مبدأ أو أسلوبًا أو تنظيرًا فكريًّا ، لا أقول يخرجنا ، وإنما يعطينا الأمل فى الخروج ، ربما هذا الأمل يقوى الإرادات ، ويصحح النيات ويشحذ العزم ويحيى الهمم ؛ فينبض قلبُ هذه الأمة بقوة وتندفع الدماء الحارة فى عروقها ويستيقظ هذا المارد الذى طالت غفوته وينفض الكرى عن جفونه ، ويزيل تلك الأسمال الرثة البالية عن جسده ، ويستأنف مسيرته المباركة وتنعم الإنسانية بما حُرمتْ منه من جراء غفوته .

لماذا لم يكن هذا الكتاب عن عمر بن الخطاب ؟

ذلك لأن عمر بن الخطاب لم يعدّله وجود الآن ، عاش حينًا من الزمن وتعاطى مع زمنه ، وأبناء جيله ، ومرَّ بتجارب ومواقف ، وبدأ كأى شخص لا ذكر له، ثم أصبح ملء

السمع والبصر والفؤاد ، ووصل إلى قمة الدولة الإسلامية ، تزوج وأنجب وطعم وشرب وسعد واغتم ، وسارت به الحياة سيرتها المعتادة ، ثم طُعِن ومات وطواه الفناء فيمن يطوى .

إذن الحديث عن شيء فني نوعٌ من العبثِ ، فأنت هنا تتحدثُ أو تكتبُ عن شيء لا وجود له ، شيء كان ولم يَعدْ له وجود .. وكثيرون يغفلون عن تلك البديهة ويبددون الكثير من الوقت والجهد على أنفسهم وعلى القارئين . فنجد البعض يكتب عن المتنبي أو الغزالي أو الجاحظ أو شوقي أو العقاد ، كل تلك الكتابات لم يصبْها التوفيقُ في جانب كبير منها لأن كل هؤلاء قد ماتوا ، وحديثك عن شيء ميت لا جدوى منه .

وإنما حديثنا وكتاباتنا يكون عن الشيء الباقي الخالد من هؤلاء ، الذي بقي من المتنبي هو شعره ، الشيء الذي ينبض بالحياة بين يدي هو أدبه ، أما خلا ذلك فلا قيمة له.

سيقول البعض إننا لا نستطيع أن نفهم ونتذوق شعر المتنبي إلا بدراسة المتنبي نفسه .

أظن أن السؤال تضمن الجواب ، أنك تريد أن تفهم وتتذوق شعر المتنبي لا شيء آخر ، إذن أنت تتفق معي أن الهدف والمقصد والغاية شعر المتنبي ، وللوصول إلى تلك الغاية والهدف افعل ما تشاء ، ولكن ينبغي ألا تنسيك الوسيلةُ الغايةَ

ولو ظللنا نكتب عن الأموات لما بقي لنا وقت لنحيا كما أراد الله لنا . " ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحًا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد ، فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم . ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية

أبقى وأنجح إذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب سواء كان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين "[1].

لذلك فلا يعنينا من عمر إلا ما بقى من عمر على مرِّ التاريخ والأجيال وسيبقى إلى أن تغرب شمس هذا العالم الغروب الأبدى " والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق . فليس أحسن من مجاورته شيئا .. نورا يضىء . وكان يضىء ظلمات الحياة وليس هو من كواكب الأفق هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة، ومعانى الرجولة والشرف الكبير وهو الذى فى شعاعه أنسُ الأرواح وروح النفوس ومتعة الخَواطر"[2].

وهذا المتبقى من عمر هو ما صنع عمر . ولو لم يبق ما لهجت به الألسنة فى أحلك اللحظات ، وأشد الظروف عسرة وكربة .

ولن نقف أمام كل ما بقى من عمر – فهذا خارج طوقنا – وإنما سنأخذُ ما يحتاجه أبناءُ زماننا ، ما يمكن أن نوظِّفه لشفاء علة ، أو جبر كسر أو إصلاح خطأ أو تقويم معوج أو توضيح غامض أو جلاء مبهم فى حياتنا الحاضرة ، إذن الحاضر وما يموج به من مشكلات وقضايا هو الذى سيحدد زاوية النظر أو الوجهة التى سننتهجها .

وينبغى لنا أن نبتعد – ولو مؤقتا – عن الرفاهية الفكرية ، أو الرفاهية البحثية فى التراث ، ألا نبحث لمجرد البحث ، وإنما ينبغى أن نتبنى أسلوبًا أو نظرية ، حينما نبحث قضية من قضايا هذا التراث فإننا نبحث ونفتش عن مرجع نرتكز عليه لتقييم وتقويم ظروفى الحاضرة أولا وقبل كل شىء ، لأعالج الأمراض الحاضرة على ضوء هذه (الروشتة) التى ذكرتها سابقا .

١- الحسين أبو الشهداء - تأليف : الأستاذ / عباس العقاد صفحة (١١).
٢- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - صفحة (٨).

فمثلا حينما أقوم بدراسة موقف من مواقف المسلمين الأولين ... أنا لا أسرد ما حدث ، فما حدث قد حدث وانتهى ، ولكنى أدرس ظروفى وأحوالى ومواقفى الحاضرة على ضوء موقفهم هم ، ... هل تصرفنا كتصرفهم هل نظرنا إلى الأمور كنظرتهم ، هل تعاملنا مع جزيئات حياتنا اليومية المعتادة والمستجدة كما تعاملوا هل ضحينا بكل شيء فى سبيل هدف سام نبيل كما ضحوا ؟ هل .. ؟هل ... ؟

أنا هنا لا أستعرض أحداث وأحوال ما مضوا ... لأن بفعلى هذا لم أغير شيئا ولم أضف شيئا ، سوى نوع من التكرار الممل السقيم ، وهذا خطأ يخطأ فيه الكُتَّابُ وخطباءُ المساجد أو لنقل بعضهم ، ما يقولونه لاسيما فى المناسبات الدينية - وما أكثرها يقولونه كل آن وحين ، إما عن غفلة أو عن نية مخلصة تنقصها شجاعة نقد الظروف والأحوال الراهنة التى يعيشها المجتمع ، ويؤثرون السلامة على غيرها لأن نقد أحوال المجتمع قد تغضب القائمين على أمره ، ونقد أحوال الناس يضيف إلى همومهم الكثيرة همًّا أكبر .

العُمرية :

لتلك الأسباب رأيت أن يكون الكتاب باسم (العُمرية) ، وأقصد به هذا المبدأ أو العقل الجامع أو المزاج الذى يملك عمر ويستحوذ عليه ويسيِّره ويدفعه دفعا واعيا ليفعل هذا ولا يفعل هذا ، ويقول هذا ولا يقول هذا ، غير ناظر بعد ذلك إلى ما يترتب على ذلك من ضرر أو نفع ، أو لنقل إنه لا يأبه ولا يكترث بعد ذلك بالنتائج مهما كانت ، وهذا ليس نوعًا من التفكير لأن التفكير لا يفوته أن يوازن بين البدائل ويربط النتائج بالمقدمات ويقارن بين النفع والضرر ، ويفاضل بين المكسب والخسارة .

قل هى جسارة طبع ، مع قوة نفس ، مع صلابة رأى مع مضاء فكر مع يقظة ضمير مع نفاذ عزيمة مع صفاء روح مع صدق نية .

هذا المزاج النفسي والعقلي والعصبي صادف أو قل كان على وفاق واتفاق من نوع ما مع عقيدة جديدة جامعة لكل الأدوية التي تعالج أدواء الإنسانية ... مع نبي جمعَ بين جنبيه أشرف وأنبل وأسمى وأرقى وأرقّ الصفات التي مكنته من لمس شغاف النفس الإنسانية والاتصال بها من أيسر وأقرب وأوضح السبل ، فإذا النفوسُ الضالةُ هُديتْ ، وإذا الأرواحُ الحائرةُ اطمأنتْ، وإذا الضمائرُ الميتة تسري فيها حميّا الحياة ، وإذ القلوبُ الجلمودُ ترقُّ وتذوبُ تصدعًا وخشوعًا ، ويستوي القوم أسوياء ، مالكين أزمَّتهم وأزمَّة العالمين مع مجتمع خام ظمآن إلى العدل متلهف إلى أن تمزقَ من فوق جسدِه الواهنِ العليل أكفانُ الجمودِ ، وسرابيلُ الجمودِ والتخلفِ ، ويزاحَ عن آذانه وعُيونه أختامُ القهرِ والحرمانِ .

مع عالم يستمدُ دينه وشريعته من القوة الغاشمة ، ويفرض هواه على الشعوب المهيضة المستعبدة التي تقتات ليل نهار بالذل والقمع والاضطهاد .

- عقيدة .
- نبي .
- مجتمع .
- عالم .

عناصر وعوامل تجمعت عن اتفاق ووفاق مع تلك النفس ، وخلقت كائنا أو ساعدت في إعادة صياغة وتشكيل كائن ، أقل ما يقال فيه إنه من أعظم العظماء الذين عرفتهم الإنسانية .

هدف العُمرية :

والعمرية لا تهدف إلى أن ترضى الضمير الإنسانى ، فتلك غاية هينة يتوصل إليها الكثيرون ، من خلال استفراغ الجهد والطاقة ، حتى ولو لم تصب نجاحًا أو توفيقًا أو تصل إلى غاية ، هذا فى حد ذاته نوع من الجهد والطاقة .

محبوس أو مكظوم لم يُطْلَقْ ، ولم يُحَرَّرْ ، ولم يتحْ له الفيضان ليسير إلى غايته محققا أهدافه ... ففى لحظة إطلاق هذا المخزون تتنفس الضمائر الصعداء ... أما النجاح والتوفيق فراحة أخرى .

(العمرية) تخالف هذا النمط المعتاد والمعروف لبنى الإنسان . (العمرية) تجاوزت هذا الأمر ، وتلك الدرجة ، وأصبحت هى الرقيبة على الضمير وهى الباعثة فيه القوة والنشاط إن أصابه شىء من الضعف والفتور .

وصاحب (العمرية) لا يستطيع أن ينهنه من غلوائها ، أو يخفف من اندفاعها أو يحد من سورتها ، لأنها هى التى تملى بواعث التصرفات ودوافع الأفعال .

" إن الرجل الكبير لا يفخر بأخلاقه قط ، بل هو لا يسأل نفسه : أهى مخلصة أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته فهو مخلص على الرغم من نفسه أراد أم لم يرد " (١) .

لذلك فتلك التصرفات والأفعال تدهش أبناء الزمن الذين عاصروها وتدهش أبناء كل الأزمنة التالية لها .

وأظننى لا أتجاوز القصد وأتعدى الحد لو قلت إن أشد المندهشين من تلك الأفعال والأقوال هو صاحب الطبيعة العمرية نفسه !! .

١- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - (٦٠).

وكأنه شخصان ... شخص يخوض فيما يخوض فيه الناس حوله وشخص آخر يرى ما لا يرى الناس ، ويتصرف ويفعل لا كما يتصرف ويفعل الناس حوله . وليس هذا ما يسمى (بالانفصام الخلقى) .

فالانفصام شخص يتصرف تصرف شخصين ، كلاهما متدابر وخلاف الآخر هذا جهة اليمين وذلك جهة اليسار ... ولكن الأمر هنا أن الشخص الثانى يعرج فى مدارج الكمال والسمو والرقى ، يضع أحد قدميه إلى نهاية ما تطمح إليه النفس الإنسانية من تحقيق العدل والخير والحق ، والأخرى يتجاوز بها المطمح الإنسانى بمراحل كثيرة .

الفصل الثانى :

إنكـــار الـــذات

إنكار الذات

خصيصةٌ من خصائص العمرية ، ومن أهم مقوماتها ، (إنكار الذات) ، هذا الإنكار الصادق الواعى النابع من إيمان الذات بمحدودية أفقها ، وتواضع إمكانياتها ، أكبرُ معيار لاستقامة الذات ، ونزاهتها أن تصيبها آفةٌ من آفات الغرور أو الكِبْر أو العُجْب .

هذا الإنكار بمثابة سياج تحمى الذات به نفسَها من نفسِها ، فانهيار النفس لا يأتى إليها من الخارج وإنما من الداخل . وهو فى الوقت نفسه - أقوى وآصلُ وأوضحُ دليل لإثبات وجود الذاتِ .

فحينما تعلن الذات بكل صراحة عن عجزها وعن ضعفها وعن نقصها فإنها لا توصد أبوابها أن تستمد عونًا ومددًا من خارجها يجبر هذا العجز ، ويقوى هذا الضعف ، ويكمل هذا النقص .

هو استعدادٌ مخلصٌ من النفس للتقييم الدائم والمستمر وللصقل والتهذيب والتأديب.

هو رقى دائم وصعود نحو الكمال الإنسانى .

عمر هنا لا شاغل له إلا التفوق على ذاته ، من خلال المقارنة بين ذاته الإنسانية بكل نقائصها وعيوبها وأخطائها ، وبين ما يجب أن تكون عليه الذات من مقصد ربها ، أو رقابة الله عليها وحساب الله لها .

دائما الخط موصول بين ذاته فى الدنيا ، وذاته بين يدى الله فى الآخرة

بين ذاته الإنسانية التى تملك إمكانية الفعل وقدرة التصرف فى وقتها الحاضر وبين ذاته التى نفذ منها إمكانية الفعل وقدرة التصرف فى الآخرة ، وقت الحساب وليس أمامها إلا أن تتلقى حسابها وجزاءها على ما قدمتْ وأخرتْ

ومهما فعلتِ الذاتُ فإنها عاجزةٌ أبدًا أن تصلَ إلى درجة من درجات الإحساس بالرضا الربانى على ما فعلتْ ، هذا الشعور بالعجز هو عين الكمال الإنسانى ، لأنه يدفع الذات دفعا دءوبًا ومتواصلا إلى تلمس أى درجة من درجات التوفيق إلى مراد الله .

يقول الأحنف بن قيس " كنتُ مع عمر بن الخطاب فلقيه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعدنى على فلان فقد ظلمنى .... فرفع عمر درته فخفق بها رأس الرجل ، وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم حتى إذا شُغِل بأمر من أمور المسلمين أتيتُموه : أعدنى ... أعدنى . فانصرف الرجلُ غضبانَ أسفًا ، فقال عمر : علىَّ بالرجل فلما عاد ، ناوله مخفقته وقال له : خذ واقتص لنفسك منى . قال الرجل : لا والله ولكنى أدعها لله وانصرف ، وعدتُ مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسبُ نفسَه ويقول :

ابن الخطاب ؟ كنت وضيعًا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنتَ ذليلا فأعزك اللهُ ... ثم حملكَ على رقابِ الناس فجاءك رجلٌ يستعدى بك فضربتَه فماذا تقول لربك غدًا إذا أتيته ؟!! " .

لحظة ضيق تنتاب عمر من الرجل الذى جاءه على غير استعداد أو تفرغ فهو مشغولٌ بأمور أخرى أهم وأخطر ، لم يكن الرجل موفقا فى اختيار الوقت ، وكان رد عمر قاسيًا على الرجل ، لم تكن أمور الدولة قد تطورتْ بحيث يرفعُ الرجلُ مظلمتَه وينصرفُ ، ثم ينظر فيها عمرُ حينما تتهيأ ظروفه ، أو ريثما يفرغ من مشاغلِه ، ومع ذلك فقد قام بأمرين .

الأول : أنه راجع نفسه ، وما أقدم عليه من فعل ، فوجد نفسَه قد أخطأ فى حقِّ الرجل ، لم يراجع نفسه كحاكم أو أمير للمؤمنين ، وإنما راجع نفسَه وحاسبها رجلا لرجل فطلب أن يأتوا له بالرجل ، فجاء ، لم يعتذر له عما بدر منه ، ولم يبحث مظلمته وإنما جنح إلى القصاص العادل .

الثانى : الاتجاه إلى الرقيب والمحاسب ، صلى ركعتين ، اتصال وثيق بالله ، ثم الاعتراف (ابن الخطاب) ثم مقارنة بين ما كان وبين ما صار عليه، كنتَ وضيعا فرفعك اللهُ ، كنتَ ضالا فهداك الله كنتَ ذليلا فأعزك الله ، ثم الانتقال إلى الفضل والمنة الكبرى ثم (حملك على رقاب الناس) ، نتيجة هذا (فضربته) فى كل هذا ليس لديك ما يخولك أن تضرب أحدًا فالفضل بيد الله . وما كان لديك أن تمتدَّ لتضربَ أحدًا من المسلمين

نأتى إلى تفسير دوافع كل تصرفات عمر (فماذا تقول لربك غدا إذا أتيته)

الذات الإنسانية فى مواجهة الله ... ويا لها من مواجهة !!

المرجع الوحيد لعمر موقفه أمام الله ، وإذا صح هذا الموقف ، فهو لا يعبأ بما يترتب عليه بعد ذلك ، فليس لديه اعتبارات خاصة بشخصه أو ذاته أو الآخرين الموقف والمشهد أمامه لا يوجد فيه سوى الله ، ما سوى ذلك فلا وجود له .

وهذا ما أمدَّ عمر بنوع فريد من القوة والجرأة والشجاعة لا نظير له ، وما القوة والجرأة والشجاعة إلا إسقاط لأى اعتبار وكل اعتبار ، والعمل والتفكير فى مبدأ واحد لا يتغير مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما كانت الأخطار والأهوال المحسوبة وغير المحسوبة التى ستترتب على هذا العمل . (إن عمر لا يخشى فى الله لومة لائم) فليلم اللائمون عمر ، وليشددوا فى هذا اللوم . وليقف هو فى ناحية والعالم كله فى الناحية المقابلة فإن هذا لا ينال من صلابة موقفه ، ولا يقلل من قوة يقينه ، فقد وضحت له الجادةُ واستبان له الصوابُ ، فقد يتشكك العالمُ كلُّه فى موقف من المواقف التى يقفها ، وقلما يتسرب الشكُّ أو الريبُ إلى نفس عمر ، لأن مبدأه ومنتهاه فى كل أموره هو ذات الله وهذا ما جعل الناس يخافون عمر ، بل تعدى ذلك كما قال رسول الله ﷺ : (إن الشيطانَ ليخافُ منكَ يا عمرُ)

وما الشيطانُ - فى ظننا - إلا تلك الوساوس التى تنتاب الإنسان لتبعده وتضلله عن الله ، وحب النفس الغرور والعجب والتكبر وخمط الناس ، والتعالى والسير مع هوى النفس وحب العاجلة .

تلك هى البوصلة التى تحدد تصرفات عمر ، وأفعاله ، ومواقفه ، شعور عميق بفضل الله عليه ، واعتراف صادق بهذا الفضل ، مع قوة إيمان تملأ منه شغاب النفس والفؤاد . إذا اجتمعت تلك الأمور تجعل الذات تتضاءل تتضاءل .

عن طارقٌ بن شهاب ، قال ؛ لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة : قد صنعتَ اليوم صنيعًا عظيما عند أهل الأرض صنعتَ كذا وكذا .

قال : فصك عمر فى صدره وقال : أوَّه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس فأعزكم اللهُ بالإسلام فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يذلكم اللهُ ، هنا ذات شريفة نبيلة تربى نفسها بالذل ، وإذلال الذات لنفسها هو عين الكبرياء وبؤبؤ العظمة .

وأن يقوم رجل من عامة الناس بإذلال نفسه هذا شىء يدعو للفخر ولكن لا يدعو للعجب ، وأن يقوم حاكم بإذلال نفسه بعيدًا عن أعين الناس وخفية فهذا شىء يدعو للإعجاب ولا يدعو للعَجب .

ولكن أن يقوم حاكم لأمة ظافرة ومنتصرة بإذلال نفسه على مرأى ومسمع من الناس عامدًا متعمدا فهذا شىء يدعو إلى العجب العجاب حقا .

لأن المفترض أن يقومَ الحاكمُ - أى حاكم - بتأصيل الرهبة والخوف والإجلال فى نفوس المحكومين كى لا يجترئوا عليه ولا يستهينوا به ولا يستخفوا بأمره وأظن أن هناك أجهزة مخصصةً ومجندةً لتقوم بتلك المهمة ، وهى تواصل عملها ليل نهار بدون توقف وأشد

ما يحرصُ الحكامُ عليه الاطمئنان على أن تلك الأجهزة تؤدى عملها بنجاح ، ويُنْفَق عليها بسخاء وأحيانا ببذخ لا مبرر له ، ومع ذلك قد لا توفق بعض التوفيق لأن عملها قائم على الكذب والتلفيق والتزوير فى بعض الأحيان.

عمر لم يكن فى حاجة إلى أن يجند مثل تلك الأجهزة ، ولم يكن فى حاجة إلى أن يقتطع الجزء الأكبر من أموال المسلمين للإنفاق بسفه على تلك الأجهزة ، فهو يفعل نقيض ما تفعله ، ومع ذلك يظفر بما لا تظفر به ويحقق ما تعجز عن تحقيقه فكلما أذل نفسَه وقلل من شأنه أمام الناس زادتْ رهبتُه فى قلوب الناس وعظمتْ هيبتُه ، وعلتْ مكانتهُ وهو أشد ما يكون زهدًا فى تلك الرهبة ، وإعراضًا عن تلك الهيبة ونفورًا عن تلك المكانة .

" عن محمد بن سعد يرفعه إلى عمر أنه قال : لقد رأيتنى ومالى من آكال يأكله الناس ، إلا أن لى خالات من بنى مخزوم ، فكنتُ استعذب لهم الماء فيقبضن لى القبضات من الزبيب ، ثم نزل عن المنبر فقيل ما أردت بهذا ؟

قال : إنى وجدتُ من نفسى شيئا فأردتُ أن أطأطئ منها " .

ها هو عمر قاهر الجبابرة ، محطم صولجان الأكاسرة ، ومذل كبرياء القياصرة والتى سارت سراياه لتمتد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ترفع رايات الإسلام وقواده يسجلون انتصارات تملأ الدنيا دويا ، لا يفتأ يربى نفسَه ، وما كان له أن ينهض بكل هذا لولا امتلاكه زمام نفسه ، والتحكم فيها والرقابة الواصبة عليها ، ولِمَ لا يتسنى له إذلال الجبابرة والأقوياء ، وقد بدأ بإذلال نفسه كلما أحس منها التطلع إلى الكِبر ، أو لبس لبوس الغرور والتيه ؟

" عن ابن عمر قال : صعد عمرُ المنبرَ فجلسَ ، ونُودى فى الناس الصلاة جامعة فما زالوا يردون حتى امتلأ المسجدُ فقام عمُر فقالَ :

أحمدُ الله عليكم ، إنى كنتُ أؤاجر نفسى بطعام بطنى ثم أصبحتُ يضرب الناس بجنبتى ليس فوقى أحد . ونزل ، فقال ابن عمر : يا أمير المؤمنين ما دعاك إلى ما قلتَ .

قال : إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها " .

يؤاجر نفسه لكى يسد جوعه !! ليس هناك أدنى من ذلك وأشد فقرا وخصاصة ، ثم ليس فوقه أحد ، ويشعر ابنه بالخجل مما فعله أبوه .. وانظر ماذا يقول الابن (يا أمير المؤمنين ما دعاك إلى ما قلتَ ؟) .

إن ما تتحدث عنه عهد قد مضى ، ومضتْ أيامُه ، ولا يجب أن تذكره ولا يتذكره أحدٌ .

وانظر إلى رد عمر : (إن أباك أعجبته نفسُه فأحب أن يضعها)

هذا التواضع أو الإذلال أو التصاغر المتعمد من عمر ، لهو دليلٌ على قوة وقدرة هذا الرجل الشريف ، فكلما ساوره شيء من العظمة وأحس أن نفسَه قد تجمحُ به وتطمحُ إليه عكمها وكظمها " إنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلئ نفسٌ بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها فليس ذلك من معهود الطباع فى حى من الأحياء ، ولا نقصر القول على الإنسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون .

وهو يغالب عزة الفتح داخلا إلى الشام دخول المنتصر ، وقيل له فى ذلك فصاح بهم " خلوا سبيل جملى ! وإنما الأمر من ها هنا ، وأشار إلى السماء " [1]

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (١٤٧) .

السيادة المطلقة على النفس :

خصيصةٌ من خصائص العُمرية ، من خلال القيام بعملية إذلال دائمة ومتواصلة حتى لا يتسرب إليها إحساسٌ بالغرور والكِبْر ، وتصاب بآفة من آفات التلف والعطب فتفسد النفسُ ، وتُفسد من يتصل بها . وهذا ليس شعورا بالدونية متأصلاً فى نفس عمر ولكنه عقيدةٌ قويةٌ فى نفس عمر ، إنه لن يتسنى له أن يسوس أمةً أبيةً على الخضوع ، أنفةً على الخنوع ، شموسًا على الترويض ، إلا بعد امتلاك قيادة نفسه ، وهو إذا نجح فى ذلك فلا عليه بعد ذلك من أمر الحكم وشأن الخلافة فإن الأمورَ سائرةٌ وفقَ ما يهوى ، فقد أقام الحجةَ على المحكومين حينما بدأ بنفسه وأخذها بالشدة والقسوة والإذلال .

وما يحيطُ بالحاكم من مظاهر الجاه والسيادة والسلطان ، والتصرف المطلق والتحكم فى أزمَّة الأمور ؛ كل هذا يهيئ أن تصاب نفسُ الحاكمِ بالكِبْر والغرور والعُجْب ، ومن تلك الأبوابِ يلجُ التسلطُ والبطشُ والاستبدادُ وينعزلُ الحاكمُ عن المحكومين ، ويساورُ الحاكمَ إحساسٌ وشعورٌ أنه فوق الجميع وفوق القانون ، وأن لا رادَّ لقضائه ولا معقبَ لحكمه ويظل الحاكمُ فى غيه وضلاله إلى أن يقول : (أنا ربكم الأعلى) .

وعمرُ لم يتخذ هذا المنهجَ فى تذكير نفسه وتربيتها ، والأخذ عليها فى مسالك الغرور والتكبر إلا بعد أن تولى الخلافة ، لأن مناطَ تلك الأمور هى السلطة ، وربما لم ينس عمرُ وصيةَ أبى بكر حينما حضرته الوفاةُ ، وكانت من ضمن وصاياه :(إن أول من أحذرك نفسك) .

التطبع والطبع :

الشيء العجيبَ في هذا الأمر ، إن عمر ظل يتكلفُ هذا الأمر إلى أن صار هذا طبعه وكأنه جُبِلَ عليه ، وأصبحتْ تلك سمةً يوسم بها ، وهذه من صفات العمرية أنه يبدأُ بالتخلقِ بالخلق ، ويتكلفُ من أمره عسرًا وشدة كي يسيرَ على نهجٍ ما ويظل على هذا إلى أن يصبحَ هذا الأمرَ وكأنه فُطِرَ عليه ، وطُبِعَ عليه ، ويصبحُ خليقةً من خلائقه الأصيلة الثابتة ، لا يستطيع عنها حولا .

فهو يعلمُ أن به نقصًا في حاجة إلى التمام والكمال ، ويدرك أن به اعوجاجًا في حاجة إلى التقويم ، وأنه ليس بضائره أن يمضي عمره وبه نقص واعوجاج ، لأن ضرره لا يتعدى ذاته منفردًا ، ولكن حينما يتولى أمورَ الناس ، ويصبحُ حاكمًا فالأمرُ مختلفٌ ، فهذا النقصُ والاعوجاجُ سيتعدى أثرهُ إلى الرعيةِ وستصطلى بناره يقول في أول خطبة بعد أن تولى الخلافة:(اللهم إني شديد فليِّنّي ، وإني ضعيف فقوني وإني بخيل فسخِّنّي) .

قد تكون تلك الشدة في غير مكانها ، فيطلب من الله أن يلينه ، وقد يكون الضعف في غير أوانه فليلتمس من الله أن يقويه ، وقد يكون بخيلا فيرجو من الله أن يسخيه اعترافٌ صريحٌ وصادقٌ أمامَ الناسِ من فوق المنبر ، وتضرع إلى الله بإصلاح هذا الاعوجاج .

كلُّ المواقف قبل إسلام عمر وبعد إسلامه تدلُ على قوة اعتزازه بنفسه وثقته في قوته وإحساس شريف بالشموخ ، وشعور نبيل بالكبرياء كل هذا منحه إحساسًا بأنه ليس من عامة الناس ، خُلِقَ ليكون شيئا كريمًا في تلك الحياة علامة بارزة ، سمة مميزة ، نقطة فارقة ، حدًا فاصلاً .

إنسان بتلك الصفات ، إذا تبوأ مقعد الحكم من الممكن أن يكون حاكمًا مستبدًا ديكتاتوريا ، قاسيا ، متسلطا مستبدًا بفكره ورأيه وفعله ، وهذا ما قاله البعض حينما

عرف أن الصديق مستخلف عمر : (استخلف علينا فظًّا غليظًا ! لو قد ملكنا كان أفظ وأغلظ) ، وقالوا للصديق (فماذا تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر) .

وكان الناس - ظاهريًا - على حق ، فكل الشواهد تدل على أن عمر سيكون خليفة لا يطاق ، وحاكما لا يحتمل ، والمنطق والواقع يحكمان بذلك . وكان الصديق على حق فى اختياره لعمر رغم بعض المبغضين ، فقد قال وهو يوصى عمر : (يا عمر ! أبغضك مبغض وأحبك محب وقد ما يبغض الخير ويحب الشر) .

ولكن هؤلاء النفر الذين توقعوا من عهد عمر أن يكون عهد شدة وغلظة وحكم بالحديد والنار ، غاب عنهم الدرس الذى علمه رسول الله ﷺ لهم ، سبره لغور نفوس من حوله حينما دعا بأن يعز الإسلام بعمر ، .... إن عمر شديد وغليظ وعنيف ولكن فى جانب الحق ومن أجل الإنصاف ، فقوته قوة مبدأ نابعة من عقيدة ، ليستْ شهوة أو هوى ، أو شططا لا يقف عند حد .

عمر شديد وغليظ ... هذا لا مراءَ فيه .

وإنه متى تولى الخلافة فسيكون أشدَّ وأغلظ على الناس.. هذا لا ريب فيه

وإنه متى كان قائما على الناس سيكون الأشد والأغلظ على نفسه ... بل سيكون وقد كان - أول المبتلين بهما ... فلا أحد من الناس يختلف على هذا الأمر

أدرك عمر منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها الخلافة ، أن الجهاد ليس بينه وبين الناس ، وليس بينه وبين الولاة والقواد ، ولكنه بينه وبين نفسه وإن ميدان الجهاد ليس خارجه وإنما داخله ، وأدرك أن المنتصر - ولا بد - فى تلك الحرب هى القيم والمبادئ والخير والعدل ، وأن المنهزم هو الغرور والطمع والكبر والتسلط وهوى النفس .

وقد نجح عمر نجاحًا عظيمًا في تلك المجاهدة ، وأسلست نفسه قيادتها له وأصبحت تأتمر بأوامره وتنتهي عن نواهيه ، وسدَّ جميع منافذ الغرور والكبر . رغم كل هذا الرصيد الهائل والعظيم من أعماله ، والتي أعزت من شأن الإسلام كما توقع نبيه العظيم حينما ينظر عمر إلى كل أعماله وتاريخه لا يجده شيئا يستحق أن يعتمد عليه الإنسان في تحسين موقفه أمام الله أو أمام الرسول ﷺ .

" دخل عبد الرحمن على أم سلمة فقالت : سمعتُ النبي ﷺ يقول : إن من أصحابي لمن لا يراني بعد أن أموت أبدًا . قال : فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورًا حتى دخل على عمر فقال له : اسمع ما تقول أمك فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها ، ثم قال أنشدك بالله أمنهم أنا ؟

قالت : لا ولن أبرئ بعدك أحدًا " .

رغم أن عمر كان يدرك إدراكا لا يخالجه شك أن علاقته بالرسول - ﷺ - من نوع خاص ، عمادها الإعزاز والاحترام والتقدير والتبجيل ، وقد صرح الرسول بذلك في أكثر من موضع ، وإن مكانة عمر من قلب رسول الله ومن الإسلام مكانة سامية سموًّا كبيرًا . وأنه لم يكن يفارق نبيه ، ولم يكن يفارقه نبيه فحق لعمر أن يطمع في مكانه مميزة في الآخرة من نبيه ، كتلك التي كان عليها في الدنيا .

ولكن متى كان عمر يغتر بما قدمت يداه ؟

ومتى كان عمر يعدد ويحصي رصيده ؟

إنه كصاحب مال كثير ، لا يرى فيما حوى أي فضل ، وإنما كثرة هذا المال عبء لأنه يفرض عليه القيام بتأدية حق هذا المال ، وتأدية ما يوازيه - بل يزيد عليه- من شكر وحمد وإن هذا المال ما هو إلا ابتلاء واختبار له .

الفصل الثالث :

الغض من شأن العظمة

الغض من شأن العظمة

فى الفصل السابق ذكرنا أن (إنكار الذات) خصيصة من خصائص العمرية وتلك الصفة تأصلت فى نفس عمر إلى الدرجة التى كانت تصدر عنه عفوًا ، وتلقائيا بدون تعمد ويخيل للمتأمل أن نفس عمر نفسان ، أو أن عمر يجرد من نفسه نفسا أخرى تكفكف من تمادى النفس إن تمادت ، وتقلل من تجاوزها الحدود إن تجاوزت ، وتمنعها من الشطط إن جمحتْ .

وأصبحت تلك طبيعة فى عمر ، تصدر عنه صدورًا طبيعيًا بدون تكلف ، حتى إنه كان يبادر إلى هذا الفعل قبل أن يشعر بشىء من الزهو ، كنوع من الوقاية ، ولا يعرف العظيم إلا من هذا الأمر ، حينما تكون هناك خصلة أو صفة أو خلق ما حميد فيأتى هذا الإنسان بداية محاولاً أن يتخلق به ، ويتطبع به ويظل مداومًا عليه مجتهدًا ألا يفارق هذا الخلق وألا يفارقه حتى يصير طبعا أصيلا ، ولا يكتفى بذلك بل يحاول أن يتجاوز هذا الخلق ويضيف إليه من عند ياته .... مثل صفة الكرم فيحاول شخص ما أن يتصف بتلك الصفة ، ويدأب عليها ، ويشتهر بها وتشتهر به فتصير خلقًا من أخلاقه ، وطبعًا من طباعه ولا يتوقفُ الأمرُ عندَ ذلك ، بل يفعلُ ما من شأنه أن يتعدى حدودَ تلك الصفة ، ويصبحُ فعلُه رمزًا أو عنوانًا من عناوين الجود والكرم ، إذا ذكر يذكر تبعًا له الكرمُ ، فهو المقدمُ والصفة لا حقة له ، بل تستمد الصفة معناها وقوامَها منه ، فهو نبعٌ أو موردٌ لتلك الصفة .

" ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها " [1] .

١- عبقرية عمر – عباس محمود العقاد (٦١).

وخذ مثلا صفة (المساواة) ، ففى أن يسوى شخص ما بينه وبين المحيطين به ...هذا أمر طيب .

وأن يسوى شخص حَازَ من القدراتِ والمواهب ما ينزله منزلةً ساميةً فيمن حوله ويشهد المحيطون به بتميزه ، ويأتى ذلك الشخص ويسوى بينه وبين من لا يملك تلك القدرات والمواهب .. فهذا نوع من النبل والشرف .

وأن يأتى حاكم مظفر فتحت على يديه مشارق ومغارب ، وبكلمة منه ترفع أقدار قوم ، وتخفض أقدارُ آخرين ، ويسوى بينه وبين رعيته ... فهذا يتجاوز بآمادٍ النبلَ والشرف

وعمر لا يفعل ذلك كنوع من التفضل أو المن ، ولكنه يفعله لأن هذا طبع مركوز فيه ولا يملك أن يمتنع عنه ، أو يتحول عنه .

" ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يحرد منه شخصا آخر غريبًا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدًا وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب بخ بخ ياعمر!.....ويحك يا بن الخطاب ؟

ماذا يقول عمر ؟

وهذا فلانٌ بن عمر وليس بفلان ولدى ...

إلى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث من خليقة التسوية بين جميع الناس وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس "[1] .

١- عبقرية عمر – عباس محمود العقاد (٣٤).

موقف عمر من العظمة :

لا يعرف قيمة العظمة فى الحياة الإنسانية وأثرها فى النفوس إلا كل عظيم وللعظمة أخطارها ومضارها .

خطورة على المعظِّم ، وخطورة على المعظَّم .

أما خطورة العظمة على المعظَّم :

فهو الغرور والكبر ، وكما وضحنا فى الفصل السابق أن العظمة قد تصنع سياجًا حول العظيم لتسد منافذ التواصل بينه وبين من حوله ، إحساسًا أنه قادر على العطاء ، وأن من حوله فى حاجة ماسة إليه وأن لا أحد يغنى عنه شيئا ، نوع من التعالى والتكبر والغرور يؤدى به إلى الانعزال والتقوقع الذاتى ، وينسى العظيم أو يتناسى وهو فى غمرة تعاليه وانعزاله أنه سد الروافد التى ساعدته أو هيأته أو تجمعتْ لتكون منه عظيمًا ، لأن العظمة أو البطولة شىء مكتسب ، تضافرت عوامل كثيرة ، وحدث وفاق واتفاق مع شخصية ما كانت مهيأة أو لديها من صفات عقلية ونفسية - لتستثمر تلك العوامل أفضل وأحسن استثمار أو تستغلها كأنبل ما يكون الاستغلال ، وبذلك تكون العظمة . فلم يولد العظيم عظيمًا ، وإنما عمادُها الإرادة والتصميم والعزم مع شىء من مهادنة الظروف أو توافقات واتفاقات مع القدر .

والعظمة ليست صفةً جامدة ، أو وسامًا يوضع على صدر العظيم ، ولكنها قيمة متجددة ، أفادت وساهمت فى رقى وتقدم وتطور جماعة ما ، فى زمن ما ، فى مكان ما وإن تلك القيمة ما زالت تفيد ، وستفيد فى المستقبل .

أو بمعنى آخر إن العظمة حكم تصدره الأجيال المتواترة وإن أفكار وأفعال ومواقف شخصية العظيم أفادت أبناء زمنها ، وأن الشخصية ظلت متفاعلة ومتواصلة مع شتى مناحى الحياة ، وإن هذا العطاء والتواصل بين الشخصية وزمنها لم يتوقف بموت الشخص فقد ظل هناك تواصل وتفاعل من نوع آخر ، ليس مع الشخص الذى من لحم ودم ، ولكن مع (جوهر) الشخصية أو (روح) الشخصية ، الجزء أو الشيء الباقى على الزمان ، سمه ما شئت . وإن ذلك الجوهر أو الروح صالح وقادر على التواصل والتفاعل أقوى مما لو كان الشخص على قيد الحياة .

والتواصل والتفاعل لا يتم على أكمل صورة مع أبناء كل الأزمنة إلا إذا أدركوا أن فى ذلك الجوهر أو الروح الكثير من مختزنات العظمة ورصيد العبقرية ، وذلك الإدراك العميق والشامل هو ما سوف يخول لهم أن يقتدوا بالعظيم ، وبالتالى ما سوف يهيأ لهم ويعدُّهم لأن يكونوا هم أنفسهم عظماءَ ، لأنه لن يتسنى لهم إدراك ما فى الجوهر أو الروح إلا وهم على قدر من الاستعداد أو على نصيب من الإرادة ، أن يكونوا - فى وقت ما - جوهرًا ورُوحًا تستفيد منهم الأجيالُ القادمةُ .

لذا فأخطر شيء على العظيم هو العظيم نفسه ، إذا أدرك تلك العظمة إدراكا ذاتيا وتضخم هذا الإدراك ، وجعله يشعر أن ما وصل إليه هو بمجهود ذاته ، وليس لأحد آخر فضلٌ أو منةٌ عليه . نقطة فى غاية الحرج يصل إليها العظيم ، أو هو مرض تصاب به الذات

اعتقادٌ راسخٌ أن ما حققه وما وصل إليه يرجعُ لذاته ، إذن هو ينتظر من الآخرين المقابل ، وقضاء دين تلك العظمة ، ألا وهو الاعتراف صراحة له أنه فوق مصافهم ، من طينة أخرى ، من خلق آخر فوق المحاسبة ، فوق القانون ، ما يسرى على الآخرين لا يسرى عليه ... وتلك هى لحظة السقوط المدوى للعظيم .

كل هذا أدركه عمر بفطرته النقية ، وحدسه الثاقب ، فجميع المواقف التى تعرض لها عمر طوال مدة خلافته من نصر أو كسب أو منة أو فضل ، كل هذا لا ينسبه إلا لله ، وينبه من حوله إلى هذا ، ليس هذا فحسب بل ينكر ذاته إنكارًا مبينا.

والمبدأ الذى طبقه على نفسه طبقه على غيره ، فمن غير المعقول أن ينكر ذاته وهو الحاكم والخليفة وأمير المؤمنين ، ويسمحُ لآخر أن يعترف بعظمته ويطلب من الآخرين ذلك

" عن الحسن . قال : كان عمر قاعدًا ومعه الدِّرَّة والناس حوله ، إذ أقبل الجارود فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة . فقال : مالى ولك يا أمير المؤمنين ! فقال : مالى ولك أما لقد سمعتها قال : سمعتُها فمه ؟ قال خشيتُ أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك " .

قد يختلف الكثيرون مع عمر فيما فعله ، ولكن قد يغتفر لعمر إذا كان ما فعله إشارة إلى تغيير فى معايير تقدير الرجال ، مع رسوخ العقيدة الجديدة فى المجتمع

أو هو غيرة من عمر على مكانة الحاكم وولى الأمر وأمير المؤمنين ، بحيث انصرف الناس عن كل هذا ، والتفتوا إلى سيد ربيعة .

أو أن عمر رأى فى وجه الرجل إحساسًا بالغرور والتكبر حينما سمع كلام الناس ، فى حضرة أمير المؤمنين ، والدليل على ذلك (فلما دنا منه) .

ثم لِمَ يلام عمر ؟ وقد بدأ بنفسه ، وألزم نفسه بتربية خلقية معينة فلم لا يلزم الآخرين بها ؟

وما فعله عمر ليس انتقاصًا من قدر الرجل ، وإنما هو فى حقيقة الأمر شهادة منه له بأنه كبير وعالٍ ورفيع المقام بدليل كلمة (أطأطئ منك) " .

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهاب".

خطوط حمراءُ وضعها عمرُ، لا يسمح لأحدٍ بتجاوزها، مهما كانت منزلته بل يثيره ويستفزه ذوو المنزلة وأصحاب الشأن ...

هل كان يتوجس منهم خيفة بما يملكون من تأثير وسطوة على الناس ؟ أكان يخشى أن تتكون طبقة تحوز من الامتياز ما يخولُ لها أن يكون لها تأثير قوى فى مصائر الأمور فى الدولة؟ ومع مرور الوقت يتضخم نفوذهم، وتتراكم قوتهم ويكونون أقطابا تتمزقُ الدولة بينهم ؟

أيًا ما كان الأمر، فالأشخاص عند عمر وحوله لهم أدوارٌ ولهم مهماتٌ، وهم أدواتٌ فى يد الدولة، لا ينبغى لأحد أن يخل أو يفرط فى أداء هذا الدور، كما أنه لا ينبغى ولا يجب لأحد أن يأخذَ أكثرَ من دوره الأمر هنا أمر سياسة قد اختطها عمر مع ولاته ومع كل عظيم، فهو يحاسبهم غير ناظر إلى ما قدموه للدولة وللإسلام

بل إن شدة حسابه لهم تأتى على قدر عظمتهم، فكلما علا الرجل وعظم كان عمرُ شديدًا عسيرًا فى حسابه . وإنه يتخذ الإجراء الحاسم والحازم إذا صدرت ضد الوالى شكاية من الرعية، حتى لو كان الوالى بريئًا، فكل هؤلاء مظنة الكبر والغرور بمالهم من أعمال عظيمة، وأياد بيضاء . وموقفه واضح من (سعد بن أب وقاص) القائد المظفر، وكذلك موقفه من (المغيرة بن شعبه) و(عمار بن ياسر) و(عمرو بن العاص) ، و (زياد بن أبى

سفيان) وقال فى تعليل عزله : (لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله ، وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه

" بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وإنما هو سبب من الأسباب التى ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا ؛ وهذه الأسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض إذا لم يتعهده نظرٌ ثاقبٌ وحسابٌ عسيرٌ .

فقد تزين له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير . فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ، ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة ، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل ، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد " (١) .

ربما لم ينظر عمر إلى الأمر من تلك الزاوية ، وربما لم يجل بخاطره ما ذكره الأستاذ العقاد من دوافع دفعت عمر إلى اتخاذ هذا الموقف المتشدد والحاد من ولاته وغيرهم ... هو ينظر إلى مناط الأمور ، مبدأها المصدر الحقيقى والأوحد ، أما ما يتفرع عنه من أمور كثيرة ومتعددة فربما لم تكن تجول بخاطره ، فعماد كل خلل فى النفس الإنسانية ، وأساس كل فساد هو إعجاب المرء بنفسه ، وغروره وتكبره ، يتفرع عن هذا كل خلل أو انحراف ، وإذا قضينا على ذلك فقد اجتثثنا الداء من مكمنه

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (١١٥- ١١٦).

لذلك كان الولاة فى عهد عمر يرون أن الولاية ليست إلا تكليفا وتكليفا شاقا وحسابا عسيرا من عمر، ومثال ذلك حديثه (لعمار بن ياسر) بعد أن عزله وكان أميرًا على الكوفة قال :

- أساءك حين عزلتك ؟

- والله ما فرحتُ به حين بعثتنى وقد ساءنى حين عزلتنى

- لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكننى تأولت قوله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ ﴾[1]

يقول (عمار) : (ما فرحتُ به حين بعثتني) وكيف يفرحُ وهناك الرقيب والحسيب والذى يحصى عليهم كل كبيرة وصغيرة ، ومع ذلك فقد ساءه العزل ؛ لأن هناك مظنة تهمة أو تقصير أو إهمال أو استغلال نفوذ ، ولكن عمر لا ينتظر أن يحدث شيء من هذا .

تلك السياسة أو تلك السنة العمرية فى الغض من شأن العظمة لم يستثن منها أحدًا حتى (خالد بن الوليد) .

عظيمان وموقفان :

كان لا بد وأن يحدث صدامٌ أو مواجهة ، أو نقطة يتقابل فيها الرجلان وجها لوجه .

فعمر - كما ذكرنا - له موقف من العظمة ، ومن كل عظيم ، ويعتقد كما أن للعظمة خيراتها ومنافعها ، فإن لها مضارها وضحاياها ، وأول ضحية هو العظيم نفسه ... إذن فليحل بين العظيم وعظمته ، وسواء اتفقنا معه أم لم نتفق ، شايعناه فى رأيه أو لم نشايعه فإن لعمر مبررًا ، ومبررًا منطقيا لموقفه من خالد .

١- سورة القصص : الآية ٥ .

ولم لا نقول إن موقف عمر من خالد هو موقف عمر من عمر.

فعمر يرى أن لا فضل لأى إنسان مهما علا شأنه، وعظمتْ قيمته فالفضلُ لا يُنسَبُ إلا لله. فالله هو الذى أجرى على أيدينا ويسر لنا تلك الأفعال، ووفقنا بفضله ومنّته، أن نتخذ تلك القرارات، ونقف تلك المواقف، التى وسُمِنا من أجلها بوسام العظمة .... فالأمر هنا أمر عقيدة.

وخالد يرى - وهو خليق أن يرى ذلك - أنه عظيم من عظماء الإسلام وقد حصل على شهادتين لم يفز بهما قائد آخر من قواد المسلمين، الأولى شهادة من رسول الله ﷺ (سيف الله) والثانية شهادة من الصديق: (عقمت النساء أن يلدن مثل خالد).

وتاريخه وسجله وانتصاراته تثبت أنه من طراز فريد من العظماء وللعظيم أن يرى آثار وانعكاس تلك العظمة على الآخرين.

حينما تساورُ تلك الأفكار خالدًا، فلا لوم ولا تثريب عليه أن يطلب ما يوازى تلك العظمة.

وحينما يتذكر أن الصديق أرسل إليه وهو فى العراق وهو يحصد الجيوش الفارسية حصدًا، ويرفع ألوية الإسلام، وجيوشه تدك العاصمة الفارسية ومدنها دكًّا، ويرسل إليه منتدبا إياه أن يذهب إلى الشام حيث الجيوش الإسلامية تقف عاجزة أمام الجيوش الرومانية ويطيل وقوفها، ويضيق الصديق بهذا الأمر، ويترك خالدٌ يد العراقَ وينتقل إلى الجبهة فى الشام حيث الجحافل الرومانية، وفور وصوله يستل النصر من مكمنه، وتنكسر الجيوش الرومانية، وتتحطم جموعهم (ليس لها إلا خالد).

إنسانيا يريد خالدٌ ثمرة هذا النضال الشريف ، مردود هذا العمر الذى أفناه فى ميادين القتال وهو يقف أمام الموت وجها لوجه ، يريد نوعًا من التشريف . نوعًا من التكريم ، نوعًا من الإعزاز ، معاملة استثنائية تتناسب مع عظيم وجليل ما قدم

وإنسانيا - أيضا- كان لا يرى للذين يجلسون فى العاصمة (المدينة) بعيدًا عن صليل السيوف ، وصهيل الخيول ، وبحار الدم ، الحق فى التدخل فى أعماله وأفعاله وتصرفاته ، فإذا كانوا قد أطلقوا يده فى محاربة الأعداء وعمل فكره وسيفه فى القضاء عليهم ، فلم يريدون أن يقيدوا يده ويحدوا من حريته بعد ذلك ؟!! .

وكان موقفه من أبى بكر الرفض حينما أرسل إليه يحاسبه فى الأموال ، ورد خالد عليه ردًا جافيا : " إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك وعملك) وبالمنظور الحديث لو أحرز قائدٌ ما النصر فى معركة واحدة من معارك خالد الكثيرة ، لتوج رأسه بأكاليل الغار وأثقلت كتفاه وصدره بالنياشين والأوسمة ، ولرقى إلى أعلى المراتب ، وأعطى له صلاحيات وكرم تكريما عظيما .

إذن عمر يرى مالا يرى خالد .

وخالد يرى مالا يرى عمر .

عمر يرى أن خالدًا بلغ شأنًا من العظمة ينبغى أن ينهنه منها ، ويحد من عنفوانها فلا فضل فيما حققه خالد ... إن الفضل إلا لله .

وخالد ينظر فيرى انتصارات لم تُحقق إلا على يديه ، فى مواقف لم يغن غيره عنه فحق له التكريم ، وإن يُقدم له كفل ما قدم وأكثر .

ويصدر قرار عمر بعزل خالد بدون تردد .

ويقبل خالد قرار العزل بدون تردد .

وإن كان الرجلان قد افترقا فى البداية فإنهما قد التقيا فى النهاية فرقهما وجهة النظر وفكر ورأى كل منهما .

وقربتهما العظمة .

فكلاهما قد التقى على العظمة .

عظمة عمر بالغض من شأن كل عظيم ، لينسب الفضل وكل فضل إلى عظيم العظماء وهو الله .

وعظمة خالد أن تخلى مختارًا وبملء إرادته عن مكانته ومنزلته بدون أدنى تردد .

وكأنى بخالد بعد أن حمل إليه أبو عبيدة بن الجراح قرار العزل ، قد أخذ فى نزع النياشين والأوسمة من على كتفه وصدره ، وكل ما يشير إلى مكانته ومنصبه وكلما تنازل عن جزء من العُجب والغرور والزهو ارتقى درجة فى العظمة من نوع آخر ، وكأنه رأى نفسه من خلال عمر ، وكان هناك صراع وحرب فى نفس خالد ولكنه خبير بفن الحرب وخبير بالسيطرة على الميادين ، فما له لا ينتصر على نفسه وقد انتصر على الأعداء فى كل ميدان ؟! وخطب خالدٌ فى حمص بعد العزل :" إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنيَّة وعسلا عزلنى وآثر بها غيري" فنهض له رجلٌ من السامعين فقال صبرا أيها الأمير ، فإنها الفتنةُ . فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا " .

ومع ذلك يبقى فى نفس خالد شىء لا يستطيع أن يخفيه حتى عن عمر فقال له بعد أن لقيه : " لقد شكوتُك إلى المسلمين . وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر... " .

خالد يتظلم من عمر ، عند من ؟ ليس هناك أحد فوق عمر ، فليكن إلى المسلمين وتبرير ذلك (إنك غير مجمل فى أمرى) .

الذى يتحدث هنا لسان خالد ، أو الجزء الذى فاض ، ولم يستطعْ أن يكظمَه أو أن يسيطر عليه ، إحساس فرَّ من ميدان مجاهدة خالد لمشاعره وأحساسيه ، ولكنه جاء مستسلما وخاضعًا معلنا التسليم (إنك فى أمرى غير مجمل) .

جرحٌ غائرٌ أحسَّ به الفارس النبيلُ .

لطمةٌ عصفتْ بكل كبريائه .

رجةٌ زلزلتْ أرجاءَ كيانِه .

وكان لا بد لعمر أن يضمد الجرحَ ، بمحو أثر اللطمة ، ويعيد القرار إلى خالد يقول عمر ردًا على عتاب خالد له : " والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىَّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعدُ على شىء " .

عمرُ يقسمُ ، وليس مضطرًا إلى القسم ، ولكن مشاعر خالد وحالته النفسية فى حاجة إلى هذا القسم : (إنك على لكريم ، وإنك إلىَّ لحبيب) .

لا ... ما حدث ليس بيد عمر ، لا دخل لعمر فيه ، عمر ينفذ مبدأ ، وهو أيضًا مضطرٌ إليه ، مدفوع به ، ولو ترك عمر لهوى نفسه ، لثبت خالدًا ولم يعزله وهو كريم عليه ، وله حبيب ؟!! .

ولم يكتف عمر بذلك ولكنه أرسل إلى الأمصار يأمر ولاته أن يعلنوا باسمه وعلى الملأ تبرئة لساحة خالد من كل مظنة أو تهمة أو تقصير " إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة " . وفى رواية " فخشيتُ أن يُوكَّلوا إليه ويُبتَلَوْا "

خطورة العظمة على المعظَّم :

لا يرى عمر بأسًا فى إعجاب المعجبين بشخص ما ، يرونه أهلا بذلك ولا يجد ضررًا فى تقدير كل ذى مقام ومنزلة ، فهو يعطى كل ذى حقٍّ حقَّه ، ويرى أن هذا فرضٌ وضرورةٌ لا محيص عنها ، وإن عدمَ تقدير أصحاب الفضل أو من هم جديرون بالتقدير نوعٌ من اللؤم فى الخلق وخسة فى الطبع : " عن يحى بن سعيد : قال : أمرَ عمرُ حسين بن على أن يأتيه فى بعض الحاجة . قال حسينُ : فلقيتُ عبدَ الله بن عمر فقال له حسينُ من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يؤذن لى ، فرجع حسينُ فلقيه عمرُ فقال له : ما منعك يا حسينُ أن تأتينى ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرنى عبدُ الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليكَ فرجعتُ : فقال عمر : وأنتَ عندى مثله ! وهل أنبت الشعرَ على الرأسِ غيركمُ " ؟

والناس حين يعجبون بشخص ويعظمونه ، لا يقفون بالإعجاب والتعظيم عند حد ولكنهم يتجاوزون كل الحدود ، ويفيضون عليه من الصفات والخلال الكثير ويمنحونه قدرات ومواهب تفوق المعقول ، ليقدر على ما لا يقدرون عليه ، ويستطيع عمل ما لا يستطيعونه ، هذا الإحساس يحيط شخصية العظيم بهالة من التقديس ترفعه فوق مصاف البشر ، وقد مرَّ عمرُ بتلك التجربة ، وابتلى بها وزلزل زلزالا شديدًا .

فلم يصل أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله وسلم إلى درجة عليا من الإعجاب بمحمد كما وصل عمر ، ولم يمتلىء قلبُ ونفسُ أحد بمشاعر التجلة والتوقير والاحترام كما ملأت تلك المشاعر قلب ونفس عمر .

تلك المشاعر أفاضت على رسول الله شيئا من القداسة ، محمد بالنسبة لعمر شىء مقدس ، هذا الإحساس لم يكن عمر واعيا له تمام الوعى ، ولكن أفعاله وتصرفاته تدل على ذلك .

فحيثما يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط جمع من أصحابه ، ويَنَلْهُ شيء ولو يسير أو هين ، يكن أولَ الغاضبين ، وأول المدافعين ، وأول المدحضين عن رسول الله ويصل بذلك إلى غاية ومنتهى الأمر ، إلى درجة أن يمد يده إلى مقبض سيفه ، ويطلب الإذن من رسول الله أن يعمل سيفه !... لم عمر دون بقية الصحابة؟!

يقول فى إحدى خطبه :" كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه فكنتُ عبده وخادمه وجلوازه ، وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمتُ على الناس لمكان أمره".

- عبده .
- وخادمه .
- وجلوازه .

توقير وإجلال واحترام وإعزاز يصل إلى درجة التقديس ، ومع ذلك فإن عمرَ لم يكن يستنيم لهذا الإحساس ، وإنما كان يقاومه مقاومة شديدة وفى أحيان كثيرة كان يتغلب عليه . فكان يناقش ويحاور ويستفسر أو أن الإحساس الذى كان يشعر به نحو نبيه يريد أن يزيده رسوخًا من خلال الاستفسار والمناقشة والمراجعة ، لأنه على يقين أن تلك المناقشة والمراجعة ستكون فى صالح رسول الله ، وسيكون فى جانب الحق والحق فى جانبه ...مثل سؤال الطالب معلمه ، وهو على يقين أن معلمه سيجيب وبذلك تترسخ مكانة المعلم فى نفس تلميذه ، فسؤال الطالب ليس عن شك أو ريب فى قدرة معلمه ، بقدر ما هو يقين وثقة بتلك القدرة .

" لقد كان عمر بن الخطاب معجبًا بمحمد غاية إعجابه محبًّا له غاية محبته ولكن الإعجاب بالبطولة كان صفة من صفاته ، ولم يكن صفته الأولى التى تغلب على جميع الخلائق . فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريقا إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهى معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف " [1]

وهذه خصيصة أخرى من خصائص العُمريَّة ، عاطفة التقدير والإعجاب تصل إلى منتهاها وتتجاوز حدودها ، وتصل إلى مرحلة من مراحل التقديس ، ولا نقصد من كلمة التقديس المعنى الحرفى للكلمة ولكنه نوع من الإعجاب والتقدير والإجلال يصل إلى ذروة الذرى إلى الدرجة التى يستهان فيها بفداء النفس ، وكل غال من الأنفس عند الإنسان .

ومع كل هذا التقدير من عمر للنبى .

ومع كل هذا الإجلال من عمر للنبى .

ومع كل هذا الإعجاب من عمر للنبى .

ومع كل هذا التقديس من عمر للنبى .

فإن الطبيعة العُمرية تفرضُ على عمر ألا يذوبَ فى شخصية المعجَب . العمرية تتماسك وتحافظ على كيانها وذاتها واستقلالها من كل ما يهدد هذه الذات أو هذا الكيان... " الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ولا يهدد (الشخصية) بالفناء والزوال فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران ، فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر ولم يكن أحد مستقلا

1- عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد (٦١) .

برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر فهو آية من الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صداقة الرأى عند ذى الرأى الصريح"[1].

نعم ، إن العظماء لتتضاءل عظمتُهم أمام عظمة النبى محمد . ولكن العظيم الحق هو الذى يحافظ على عظمته أمام هذا الصرح الشامخ والقمة العليا ، وهذا التضاؤل لا ينال من عظمته ، أنه بمثابة انحناء عظيم لأعظم منه .

وكانت عظمة الرسول تتطاول وتتشامخ أكثر فأكثر حينما لا يجعل عظمته تطغى على عظمة من حوله ، بل يحافظ عليهم ويعلى من شأنهم ويستثير مكامن العظمة فيهم ويصنفهم التصنيف الذى يليق بكل منهم ، ويرفع من شأنهم ، فهذا الصديق وهذا الفاروق وهذا سيف الله وهذا أسد الله وهذا أمين الأمة وهذا باب مدينة العلم ... إلخ .

ولن ينسى عمر كلمة قالها النبى له ، حينما استأذنه فى العمرة فأذن له وقال "يأخى لاتنسنا من دعائك " فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : " ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخى ! ... "

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف اعتداد عمر بذاته وثقته فى شخصيته واستقلاله برأيه ، فكان به رفيقا ، وعرف كيف يسوس تلك النفس الوثابة الطموح .

وكما قلنا فى فصل سابق أن عمر لا خيرة له فى تلك الطبيعة ، فهو يتعجب من مراجعته رسول الله وإصراره على تلك المراجعة .تأمل هذا وهو يسردُ واقعة الصلاة على عبد الله بن أبىّ : " عن عبد الله بن عباس قال : سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: لما توفى عبد الله بن أبى . دُعِى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف

١- عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد (١٤٨) .

يريد الصلاة عليه تحولتُ حتى قمتُ فى صدره فقلت يا رسول الله؛ على عبد الله بن أبى تصلى! وهو القائل كذا كذا . أعدد أيامه ورسول الله يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال:أخّر عنى يا عمر ، إنى خيرتُ فاخترتُ وقد قيل لى (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) لو أعلم أنى لو زدتُ على السبعين غفرت لهم لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبًا لى ، وجراءتى على رسول الله والله ورسوله أعلم . قال : فو الله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدًا) إلى قوله (فاسقون) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل " .

تأمل قول عمر : (فعجبا لى ، وجراءتى على رسول الله ، والله ورسوله أعلم)

عمر يتعجب من مراجعته للرسول .

وجراءته على من ؟

على رسول الله ، كيف يهم الرسول على فعل شىء وتناقشه وتراجعه يا عمر؟!!

ولم يكتف بذلك بل أكثر عليه ، إلحاحا وإصرارا على المراجعة .

ولم يكتف عمر بالكلام ، ولكنه حال بين رسول الله وتأدية الفعل والرسول يقول (أخر عنى يا عمر) .

وتأمل وأمعن فى التأمل موقف رسول الله (ورسول الله يبتسم) وكأنى برسول الله كان ينتظر تصرف عمر هذا وإلحاحه وإصراره وكأنى برسول الله يعلم ما يدور بخلد عمر .

صراحة ، صدق ، شجاعة ، جرأة من عمر ، يريد أن يعرف ويعلم ويطمئن

الكثيرون حول رسول الله يسلمون إن ما يفعله رسول الله صواب كل الصواب سواء عرفوا حكمة فعل رسول الله أم لم يعرفوا .

البعض لديه قناعة واقتناع بكل ما يفعله رسول الله

البعض لا تواتيه الجرأة والشجاعة أن يراجع رسول الله .

البعض لديه من الإيمان برسول الله ما يجعله فى غنى عن مزيد من الإيمان أو ترسيخ هذا الإيمان .

أما عمر فقد كان لديه قناعة واقتناع ، ولكنه يريد أن يصل إلى منتهى القناعة والاقتناع بحيث لا تبقى ذرة أو حكة فى صدره .

ولديه من الجرأة والشجاعة أن يراجع رسول الله معتمدا على ما لدى رسول الله نحوه من حب ورأفة ورحمة ولديه من الإيمان برسول الله ، ولكنه يطمح إلى المزيد من الإيمان وإلى ترسيخ هذا الإيمان بحيث لا ينال منه شىء .

وإذا كانت النبوة فى معنى من معانيها هدفا سماويا متلبسا بطموحات ورغبات إنسانية ، فقد تصادف تلك الطموحات النبيلة والرغبات الشريفة شخصية إنسانية وتمتلئ جوانح تلك الشخصية بالطموحات والرغبات من خلال معايشتها الصادقة والحميمة لشخصية النبى ، وتظل الشخصية تسمو وترقى وتشف محاولة ما وسعها الجهد أن تقترب من الهدف والمقصد السماوى ، وتنجح أن تقترب ويفيض عليها هذا الاقتراب الكثير من الرشد فى الإدراك والسداد فى الحكم والحدة فى البصيرة والقوة فى الحق ، وفى أحيان نادرة ومشهودة توفق فى أن تصل إلى المقصد السماوى ، وهذا فى حد ذاته يحقق نوعًا من الاختراق لحدود الذات الإنسانية وتجاوزا لقدراتها وإمكاناتها بحيث تصل إلى مقام النبوة ، أو لنقل تقترب من هذا المقام بجهد إنسانى بحت ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه : " قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فإن يكن من أمتى أحد فعمر " .

ألم يقل رسول الله : " إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه " ؟!

وألم يقل رسول الله : " إن الحق بعد رسول الله مع عمر " ؟!

وألم يقل رسول الله : " عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان "؟!

وألم يقل رسول الله : " لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب " ؟!

ألم يصرح هو أنه وافق ربه ووافقه ربه فى أمور ثلاث .... " عن أنس قال: قال عمر وافقتُ ربى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

قلت يا رسول الله إنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب .

وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ، فاستقريت أمهات المؤمنين واحدة بعد واحدة وأقول والله لئن انتهيتن والله ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن. قال: فأتيت على بعض نسائه . فقالت يا عمر : أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تكون أنت تعظهن . فأنزل الله عز وجل:

(عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ....) [1].

" عن نافع عن ابن عمر. قال : قال : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر بن الخطاب إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر رضى الله عنه ".

1- سورة التحريم : من الآية ٥ .

حتى فى ميدان المعركة الذى يجب أن يلتزم فيه الجندى بأوامر قائده التزاما حرفيا أو ينفذ أوامره بدون مناقشة ، يخالف عمر تلك الأوامر " عن البراء قال : لما كان يوم أحد جاء أبو سفيان بن حرب فقال : أفيكم محمد ؟

فقال رسول الله : لا تجيبوه .

ثم قال : أفيكم محمد ؟

فقال رسول الله : لا تجيبوه .

ثم قال : أفيكم محمد ؟

فلم يجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفيكم محمد ؟

فلم يجيبوه .

فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟

فلم يجيبوه ... قالها ثلاثا . ثم قال : أفيكم ابن الخطاب ؟ قالها ثلاثا فلم يجيبوه .

فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدو الله ، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليهم وسلم وأبو بكر و أنا أحياء ولك منا يوم سوء " .

قد يقول قائل إن تلك المخالفة من عمر لأوامر النبى لا تحمد له ، والأمر أمر قتال ومناجزة بين المسلمين والكفار عقب غزوة أحد ولكن تلك المخالفة من عمر لم تجد إنكارًا أو معارضة من النبى ... ولعل رسول الله كان يريد خداع أبى سفيان أن يبنى حساباته بعد المعركة على غير أساس من الواقع ، فيريد أن يوهمه أن الرسول مات وأبو بكر مات وعمر مات ولكن حينما جهر عمر بالحقيقة ...رأى الرسول أن الجهر بالحقيقة سيكون أوقع وأضر بالكفار مما لو أخفاها يبتغى بذلك الخداع وسيكون أدعى لرفع الروح المعنو -

للمسلمين والدليل على ذلك أن الرسول بعد ذلك أمر أن يجيب أبا سفيان " عن عكرمة أن أبا سفيان بن حرب لما قال : اعْلُ هبل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، قل : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان لنا العزَّى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله قل : الله مولانا ولا مولى لكم"

وليس استقلال عمر بشخصيته ورأيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزول أو يمحى لمجرد رد من رسول الله ، بل يظل عمر محافظا على هذا الاستقلال ومتمسكا برأيه إلى أن يتكشف الأمر ، وهو لا يترك مكانه هذا ، ويتنازل عن رأيه إلا إذا كان هناك أمر إلهي ، حينئذ يدرك عمر ألا مناص من أن يرجع عن رأيه :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

فقد خرج الأمر من دائرة الحوار والمراجعة ، وحسم تدخل الوحي كل مراجعة من قبل عمر .

" عن أبي وائل ، قال : قال سهل بن حنيف في الصلح الذى كان بين رسول الله وبين المشركين ، قال : فجاء عمر فقال :

يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على باطل ؟

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية من ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟

1- سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

قال : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا " .

المفروض أن يتوقف عمر حينما أجابه رسول الله بهذا الحديث (إنى رسول الله) وهذا الاتفاق أو العهد أو الصلح الذى أعطاه للكفار ، والذى سيترتب عليه أمور كثيرة تصرف فيه الرسول منه كونه رسول الله ، وتأمل استخدام رسول الله (إنى) للتأكيد أو لتذكير عمر ، أو لإدخال الطمأنينة عليه (لن يضيعنى الله أبدًا) فمهما كان ظاهر الصلح فى غير صالح المسلمين ، وإنه يحقق فائدة وجدوى للكفار إلا إنه فى حقيقة الأمر على غير ذلك ، عمر لم يرعو ... الأمر هنا ، اختلاف بين نبى وبين رجل ، بين نبى يدرك بحسه النبوى أو برؤية الملهم أن الأمور لن تصير بحسب الظاهر منها أو المعلن عنها ، وأن ما كرهه المسلمون اليوم سيكون فيه خير كثيرٌ غدًا .

وبين رجل يحكم عقله ومنطقه وغيرته وغضبه وأنفته وكبرياءه " فانطلق عمر ولم يصبر متغيظا حتى أتى أبا بكر . فقال يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : فعلام الدنية فى ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم .

قال : يا بن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا " .

فنزل القرآن على محمد بالفتح . فأرسل إلى عمر فأقرأه . فقال يا رسول الله أو فتح هو ؟

قال : نعم .

فطابت نفسُه ورجع " .

عمر يلخص القضية فى صراع بين الحق والباطل ، والحق دائما منتصرٌ . قتلى الحق فى الجنة ، وقتلى الباطل فى النار ، فإما نصر تقرُّ به الأعين ، وإما شهادة تسر بها الأرواحُ إذا كان الأمر هكذا : فلم نعطى الدنية ؟ ولم نقبل ما دون ذلك؟ وغاب عن عمر وهو فى ذروة غضبه أن الرسول إذا رضى شيئا ووافق عليه فمحال أن يكون هذا الشىء دنىّ ، لأن الذى يسره ووفقه إلى هذا القبول والرضا هو اللهُ .

ولكن كما قلنا هو اختلاف بين نبىّ ورجل .

وإنه ليظل على موقفه وإصراره إلى أن يأتى الوحى حينئذ يدخل الأمرُ فى مجال التسليم والخضوع والاقتناع .

جميع المواقف كان عمر محتفظًا بشخصيته وبذاته من أن ينالها وهنٌ أو ذوبان فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أن يسمحَ بالهالة المقدسة التى كان يحيط بها رسول الله ، أن تبهر عقله وتسلب إرادته على أن يراجع ويناقش ويحاور ويستفسر بكل جرأة وصراحة وشجاعة .

موقف واحد ، وفى لحظات ، انصهرت تلك الشخصية الجبارة وذابت تلك القوة الجبارة ، لحظة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأن تلك الأسوار الفولاذية التى أقامها عمر للحفاظ على ذاته وشخصيته واستقلال عقله قد تداعت وتصدعت ، وكأنه لم يقمها إلا للدفاع عن ذاته وشخصيته أمام عظمة وقدسية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" فالموقف نادر والبلية به خليقة أن تبتلى الرجل فى كل ما ينطوى عليه من بديهة وروية وابتلى به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن محمدا قد مات .

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته ، الذى لم ينبهه منبه قط إلى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام فى دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترئ على الصديق الذى يحبه ذلك الحب ويجله تلك التجلة ويعتقد فيه تلك العقيدة وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق يرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء " [١].

شىء واحد يكعم عمر ، ويجعله يثوب إلى رشده ، وهو فى هذا البلاء العظيم ألا وهو القرآن ينزل على تلك النفس الجبارة والإرادة الصلبة فيجعلها تلين وتخشع "عن أبى سلمة عن عبد الله بن عباس ، : أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر . فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت قال الله- تعالى -:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[٢]

وقال عمر بعد ذلك : والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى أهويتُ إلى الأرض " .

واستوعب عمرُ الدرس : أن لا قدسية لأحد سوى لله ، ولا فضل لأحد سوى لله العظيم هو الله ... ويجبُ أن يفهم ويعى الناس ذلك ، فإذا أعجبوا بأحدٍ وفتنوا به فتونًا فيجب أن يزال هذا الشخص من منصبه أو موقعه ليحال بينه وبين الناس فالناس

١- عبقرية الصديق – عباس محمود العقاد (٦٩).
٢- سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

يفكرون بقلوبهم ، ويتصرفون وفق عواطفهم ومشاعرهم ، ومن السهل التأثير فى تلك الكتلة من المشاعر والعواطف العمياء ، ومن اليسير أن يساقوا إلى غرض ومقصد قد لا يكون فيه صلاحهم أو صلاح الأمة . مثلما فعل عمر مع خالد بن الوليد وقد يعترض معترض ، فهذا فيه استئصال لنوعية العظماء من الأمة فإذا كان مصير كل عظيم الإبعاد والتعتيم والعزل فنحن مثل الهرة التى تأكل أولادها وتلك أقسى وأفدح ضريبة يدفعها العظيم .

والرد على هذا .

أنه ليس كل عظيم يفتتن به الناس ، بل هناك الكثير من العظماء لا يعرف الناس عنهم شيئا ، حتى وإن عرفوا فقد لا ينالون تقديرًا يتوافق وعظمتهم إذن ليس هو قانون سنه عمر، ويسير على نهجه إزاء كل عظيم ... ولكن هناك نوعية معينة من العظماء بلغت درجة فاستهوت الناس وفتنوا بها ، وخطر تلك الشخصية يتمثل فى

أن تلك الشخصية ستلقى ظلالاً وتعتيما على من حولها من شخصيات قد يقدمون مثلما قدمت ، وقد يفوقونها ، وقد يقدمون أشياء أخرى على نمط آخر تفيد الأمة والجماعة... نعم خالد بن الوليد نوع فريد ولا نظير له من العظماء ، لا أحد يمارى فى ذلك وقدم الكثير .. انتصارات وفتوحات .. ولكن هناك غيره ، لديه القدرة والرغبة لأن يسهم وفى حاجة إلى أن نفسح له المجال ثم إن الدور الإنسانى مهما عظم له حدود يقف عندها والعطاء يصل إلى الذروة ثم يبدأ فى التناقص والتضاؤل والأمم والدول دائما فى حاجة إلى دماء جديدة تثرى عقلها ووجدانها وتضيف إلى رصيد خبراتها ما يمكنها من أن تتطور وتتقدم .

فمن الظلم لشخصية العظيم أن يظل فى مركزه ومنصبه إلى أن يتجمد ويفقد القدرة على العطاء .

ومن الظلم لمن حوله أن يجدوا الأبواب موصدة فتحرم الأمة من عطائهم الذى لا تدرى مقدار قيمته وفائدته .

إن شخصية العظيم لها من القدرة أن تضعف شخصيات الناس وتسلب إرادتهم وقلما يأتى مسلوب الإرادة بخير .... فإذا أَمَرَ فأمره مطاع بلا مناقشة ، وإذا نهى فلا تعقيب وإذا قضى فلا مراجعة لقضائه .. وهذا أخطر ما يكون فى بداية تأسيس الدول ، والناس حديثو عهد بالأنظمة التى تجمعهم على حكومة واحدة وحاكم واحد .

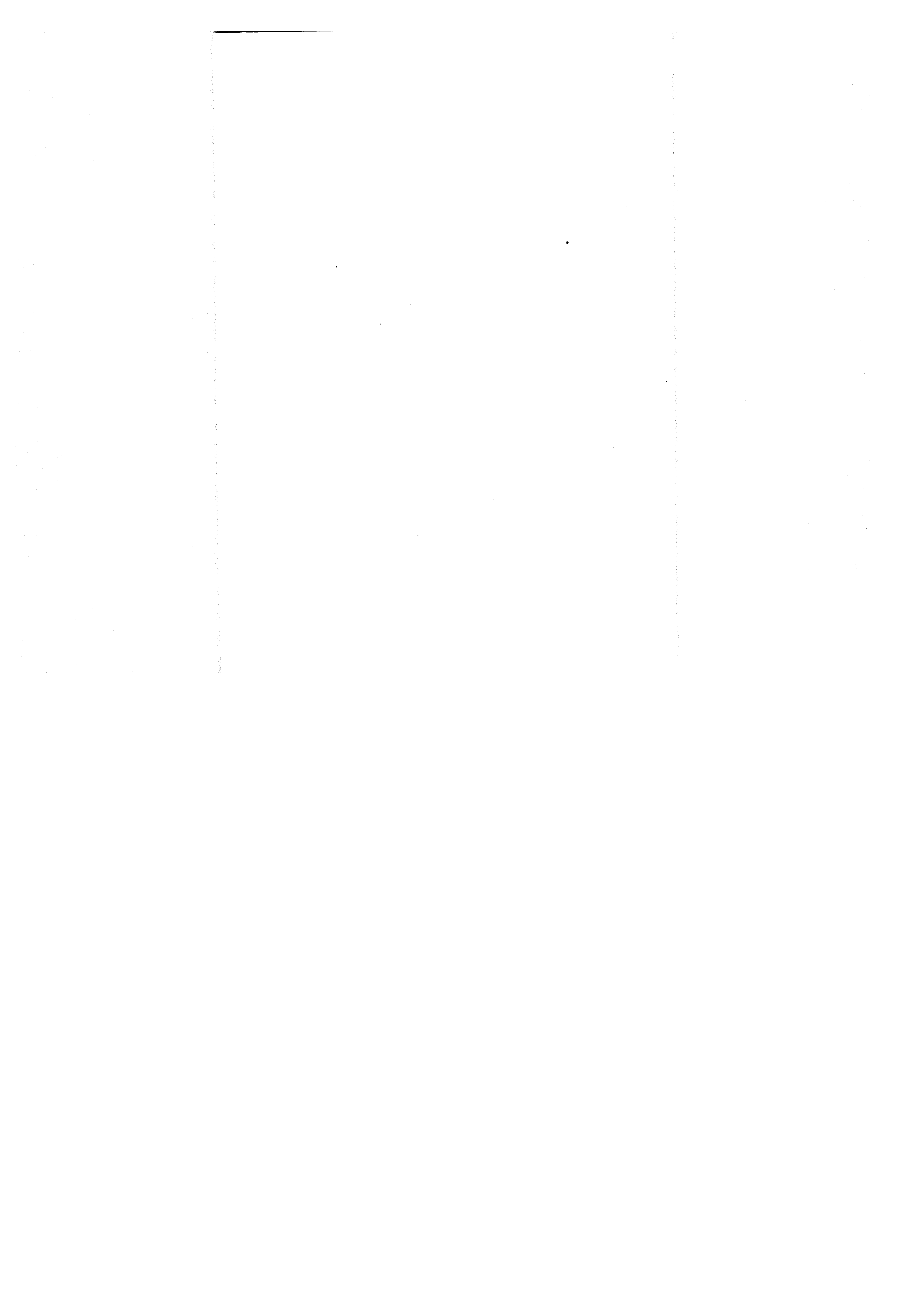
إسناد الفضل إلى تلك الشخصية والنجاح والتوفيق والانتصار قد يضعف ثقة الناس فى الله ، وهذا أخطر ما يبتلى به الناس والأمم على حدٍّ سواء.

وعمر لا يخشى على الناس من شخصية العظيم فقط ، بل يخشى على الناس من أى شىء يخلعون عليه صفات التقديس حتى ولو كان حجرًا أو شجرًا ، فقد قال وهو يطوف بالبيت وقد قصد لثم الحجر الأسود "والله إنى لأعرف أنك حجر لا يضر ولا ينفع ولو لم أرى رسول الله يقبلك ما قبلتك قط " .

وكذلك حينما رأى الناس يأتون الشجرة التى بويع رسول الله تحتها بيعة الرضوان يصلون عندها فأوعدهم وأَمَرَ بها فقطعت .

الفصل الرابع :

العمرية مبرأة من الأخطاء



العمرية مبرأة من الأخطاء

هل كل الأفعال والتصرفات والمواقف التى صدرتْ عن عمر كانت كلها صوابًا؟
هل حالفه التوفيق فى كلِّ فعلٍ فعلَه ، وصادف السدادَ فى كل قرارٍ اتخذه ؟
نسرف على عمر إسرافًا شديدًا إن قلنا نعم .

فعمر إنسانٌ ليس معصومًا ؛ لذا قد يصدرُ عنه الخطأُ ، ويتنكب جادةَ الحقِّ والصوابِ ، ولم يصادف التوفيق عمرُ فى عددٍ من الأفعال والتصرفات والمواقف .

وعمر إنسانٌ يحاسبُ نفسه حسابا عسيرًا قبل أن يحاسبه أحد ويراجع نفسه مراجعةً قاسية قبل أن يراجعه أحد . ويظل يتأملُ ويقلبُ الرأى تلو الرأى فيما يصدرُ منه من فعلٍ أو قول أو قرارٍ ولا تأخذه عزةٌ، ولا أنفة أن يعتذر لأى شخص بل يتمادى فى ذلك ليطلبَ القصاصَ من نفسه اقتداءً بنبيه الكريم أو يكفر عن خطئه ، أو يعوض المضرور حتى يصفحَ ، وحتى تطيب نفسُ عمر وتقر .

إنسانٌ تلك صفته ، وهذه سيرته ، وهذا نهجه ،يأخذ نفسَه بالشدة بدون رفقٍ أو رحمة قلما يخطىء، وإن كان احتمال الخطأ واردًا ، وقد يحدث ، ولكن الخطأ يؤكِد ولا ينفى .

يؤكد إنسانية الإنسان .

ولا ينفى كمال هذا الإنسان .

الخطأ درجة من الدرجات التى يترقى فيها الإنسان نحو الكمال ؛ لأنه اختبار وابتلاء لقوته وصدقه وصراحته . والخطأ قدرة نافذة على الفعل ، ويلاحق الإنسان ويسعى إليه سعيًا ، ولم لا نقول إنه جزء من إنسانية الإنسان ؟ فنحن إن استبعدنا توقع الخطأ

من الإنسان فكأننا بترنا جزءًا من مفهوم تلك الإنسانية ، وأصبحت إنسانية ممسوخة ، فلا جدوى ولا زيادة بيان إذا قلت (إنسان يخطىء) ، فيكفى أن أقول (إنسان) حتى يتضمن هذا المعنى ضمن ما يتضمنه الخطأ ، وإنما يبدأ الإنسان يخطو أول خطوات نحو السمو والترقى من الخطأ ، فهو ركيزة يرتكز عليها الإنسان ، أو بداية يبدأ منها لجلاء إنسانيته ، وامتحان لتلك القدرة الفائقة لمحو أثار هذا الخطأ ، نوعٌ من السمو والتعالى عن تلك الجبلة والخلقة من ناحيتين :

- الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ ، لا تزييف ولا تحريف ولا مغالطة ولا مجادلة ولا مماحكة ... نسبة الفعل إلى الذات لتحمل ما يترتب على ذلك .
- رغبة ملحة ، وإصرار دائم فى طلب الصفح ، من خلال الإرادة الصادقة فى إصلاح هذا الخطأ ، وإن عزَّ الإصلاح فهناك التوبة النصوح .

" فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف : كان داود ﷺ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع قال تعالى :

"فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ " (١)

وهذه الحالة الأخيرة بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه:

" فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ " (٢)

١- سورة القلم : الآيات ٤٨ : ٥٠ .
٢- سورة الصافات : الآية ١٤٢ .

فأخبره سبحانه أنه فى تلك الحال مليم والمليم هو الذى فعل ما يلام عليه فكان حاله بعد قوله :

"... لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾" (1)

أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى فى البداية .

والأعمال بخواتيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئا ، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال ، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى حال النهاية فى أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائما يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئا من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجه : " قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ " (2).

وقول نوح " قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ " (3). وقوله " ... فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ "(4) وقوله تعالى فى

١- سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .
٢- سورة الأعراف : الآية ٢٣ .
٣- سورة هود : الآية ٤٧ .
٤- سورة الأعراف : من الآية ١٤٣ .

داود: " ... فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ "[1].

وحديث الرسول ﷺ " كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون " خير دليل على ذلك ".

حكمٌ عامٌ يخضعُ له كلُ ولد آدم . (خطاء) وهناك الخيرية تقابل الخطأ إذا صدرت التوبة ، مع كل خطأ ، أو عقب كل خطأ .

وإذا كان هناك إنسان يستحضر الله فى كل سكناته وكل حركاته ، ويعلم علمَ اليقين أنه واقفٌ بين يديه وسيُحاسَبُ على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مع إنكار ذاته ، وعدم التعويل على ما قدم من خير ، وعدم الاغترار بمواقفه وشهادة الشهود له وأولهم رسول الله ﷺ فلا نبالغ ولا نجاوز الصواب إذا قلنا إنه لا يخطىء .

" فهو يعلم أن الله شديد الحساب وأن الله رحيم ، ولكن الجندى القوى إذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة ، فإن جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها ، فأكرم بطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص فى إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران " [2].

رجل يقود نفسه ويسيطر عليها سيطرة كاملة .

رجل آل على نفسه إن أدى شيئا فلا بد أن يقيمه على أكمل صورة وأتم إقامة

رجل يقدر كل التقدير الموقف أمام يدى الله ، وأنه موقف فى غاية الرهبة وساعة العرض ساعة فى قمة العسر .

١- اجتهاد الرسول - الشيخ (عبد الجليل عيسى) :(٣٤ - ٣٥) سورة ص : من الأيات ٢٤ : ٢٥ .
٢- عبقرية عمر - للأستاذ العقاد - صفحة (١٣٥).

والله جبار ومنتقم وقوى ، وأيضا رحيم وعفو وحليم ، وهل الإنسان الكيس هو من يعتمد على صفات الرحمة ويعول عليها وأم من يتوقع أنه سيعامل بكل شدة ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة ؟؟

ومن يضمن ألا تكون هناك غِرة ، أو غفلة ، أو إهمال وتقاعس وتفريط من نفسه ؟

الإنسان مقضى عليه إن لم تدركه رحمةُ اللهِ وحلمه وعفوه يقول عمر " اللهمّ إنى أعوذ بك أن تأخذنى على غرة ، أو تذرنى فى غفلة أو تجعلنى من الغافلين "

ولا نخالف الواقع الإنسانى ، ولا نناقض المنطق إذا قلنا إن عمر لم يخطىء فالكمال الإنسانى منالٌ يمكن الوصول إليه ، وحينما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة من الكمال لا يدخله هذا فى مصاف الملائكة المبرئين من كل خطأ وذنب ، وإنما سيظل فى مصاف الآدميين يمثل الدرجة العليا ، أو يمثل غاية ما يطمح الإنسانُ أن يصِل إليه ، يمثل الإنسان الذى كادت أن تنعدم أخطاؤه وذنوبه أو انعدمت بالفعل لأنه طلب مخلصًا الصفحَ والغفران من الذين أخطأ فى حقهم ، وقبلَ ذلك مستغفرًا متضرعًا ، نادمًا منيبًا إلى الله باذلاً كل ما فى وسعه من سماحة معنوية وسماحة مادية عما نال الآخرين من ضرر ، ومع كل ذلك يبقى فى نفسه إحساسٌ بالتقصير فى ذات الناس وفى ذات الله ، فنفسُه الطاهرة النقية وروحه الشريفة المهتدية تظلان تصلان بين تلك المشاعر والأحاسيس المؤلمة كى لا يغتر بما قدم من تعويض وتكفير واستغفار، كى لا يشعر أنه مبرأ من كل ما فعل ، وتسول له نفسُه الإقدام على إثم ، أو اكتساب ذنب أو ارتكاب خطأ ، فكل ما استغفر عنه ، وكل ما كفَّر عنه ما زال يحمل وزره على ظهره ، فما الضامن له أن فلانـًا قد سامحه سماحة صادقة ؟

وما الضامن له أن الله قد غفر له ؟ وقبل منه ورضى عنه ؟

كل امرئ بما كسب رهين :

لا شيء يُمْحَى في هذه الحياة الدنيا .

لا أحد ينفك مما فعله .

المسامحة والغفرانُ نوعٌ من الأمل ، نوعٌ من جبر النفس الإنسانية المنكسرة المثقلة بإحساس الذنب ، إن ما حدث فقد حدث ، فرضَه وألزمَه نقصُ النفس الإنسانية ، وإن الأبوابَ لن توصد في وجهها ، ولن تجعلَ القنوطَ واليأسَ يشل النفسَ عن الحركة، أو يسلبَ إرادتها عن فعل الخير ، أو رغبتها في التواجد الايجابي في تلك الحياة . وإن أمامها أن تقومَ بعملية تعادل أو توازن ، فعلتُ شرًّا بالأمس ، فَلأَفْعَلَ خيرا اليوم وغدًا ، بل ربما يكون فعل الشر أكبر الحوافز والدوافع لتقوم النفسُ بفعل الخير عن صدق وإخلاص رغبة في التكفير والتطهير " إن الحسنات يذهبن السيئات " .

الغفران – وهذا شيء لا أحد يعلمه ، ولا أحد يضمنه – ليس نسيانًا لما حدث أو محوا لما وقع ، ولكنه – الغفران – دفع للنفس ألا تقف طويلا طويلا أمام لحظة ضعف تخليص النفس من أحبولة الغم والحزن ، كي لا تثقل وتسقط أجنةَ الأمل في أن تبدأ عهدًا جديدًا بنية جديدة ، وإرادة وعزم جديدين على فعل الخير وتعمير الحياة بالعدل والجمال .

ويبقى بعد ذلك كل ما فعل الإنسان مسجلا كرصيد حيٍّ

" ... كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ "(1) ، " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " (2)

1- سورة الطـــور : من الاية ٢١.
2- سورة المــدثر : من الآية ٣٨.

وقد يعترض معترض على هذا المنطق ... أكل ما يقدمه الإنسان من خير وأعمال صالحة وعبادة ليل نهار طوال عمره .... أليس من شأن كل هذا أن يجعل صفحته بيضاء مما شابها من شوائب الإثم والذنوب والأخطاء . ؟

هذا لا يكون إلا إذا كان ما يفعله تفضلاً من نفسه ومنَّةً ، ولكن ما يفعله من طاعات هو من صميم مهامه التى خُلِقَ من أجلها : " وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ " (١) .

فمن أولى مهام الإنسان التى خلق من أجلها العبادة .

ولم نقول من أولى مهامه ، فليس له من مهمة سوى العبادة ، وأسلوب القصر فى الآية الكريمة يوضح هذا .

إذن لا يأتى إنسان متفاخرًا متباهيًا أنه صلى وتصدق و...... و........ طامعًا فى الغفران راغبًا فى جنة الله .

فالأمر ليس مقايضة مع الله .

قدمتُ لله طاعات وأعمالاً صالحة ، استحققتُ بالمقابل الجنة .

فالطاعات لا تمثل فضلاً للإنسان، أو منة يَمُنُّ بها على الله وإنما هى حق لله على الإنسان .

حتى وإن أدى كل الطاعات التى فرضها الله عليه كاملة كما أرادها الله وهذا شىء محال – لم يوف هذا الحق ، فكل تلك الطاعات قد – والله أعلم – توفى جزءًا بسيطًا من حق الله على العباد .

١- سورة الذاريات : من الآية ٥٦ .

وتبقى حقوق كثيرة لله على العباد ، لم توف ولن توفى وذلك من عظيم وجليل فضل ونعمة الله على الإنسان .

وتوفية الحقوق كاملة لا تكون إلا بين النظراء ، لأن توفية الحقوق تدخل فى مجال القدرة والاستطاعة ، حينئذ يستطيع النظير والقادر والمستطيع أن يوفى الحق لنظيره والنقص فى النظير يستتبعه نقص وتقصير فى تأدية الحق .

ولسنا نظراء لله .

إذن حقوق الله كاملة من المحال أن تؤدى من قِبل الإنسان لذا فنحن عاجزون عن تأدية حقوق الله ، ناهيك عن أن توفى هذه الحقوق ، ويبقى بين جوانح الإنسان الإحساس بالتقصير والتفريط فى جنب الله .

ويحاول الإنسان ما وسعه الجهد أن يخفف من هذا الإحساس النابع ليس من غفلة أو إهمال ، وإنما يرجع إلى سببين .

- عظيم الحق الإلهى .
- عجز النفس الإنسانية ومحدودية قدراتها إزاء هذا الحق .

إذن هو حكم على الذات الإنسانية ، أو قدرٌ مقدورٌ وملازمٌ لها بل مكَوِّن من مكوناتها.... أن هناك فجوة عميقة ، هوة واسعة تفصلها عن خالقها .

ويظل الإنسان يتحرق شوقًا أن يسد تلك الفجوة ، أن يعبر تلك الهوة ، أن يقترب ويقترب من خالقه ، وكلما اقترب ازداد ابتعادًا فبا قترابه يدرك حقيقته القاصرة العاجزة الهينة ، وباقترابه يبصر صفات الخالق بكل جماله وجلاله وبهائه وسنائه ونوره وعظمته وجبروته ورحمته .

أدرك عمر كل هذا إدراكا فطريا ، هذا الإدراك ملأ كل أفئدته ، وانعكس على أفعاله وتصرفاته .

من حديث يرويه أبو هريرة " ... قال رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة وأعطانى نعليه وقال اذهب بنعلى هاتين فمن لقيته من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشرة بالجنة . وكان أول من لقيتُ عمرَ ، فقال ما هذان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إلا الله مستيقنا بها قلبه بشرتُه بالجنة ، فضرب عمر بيده بين ثديى فخررتُ لإستى . فقال : ارجع يا أبا هريرة فرجعت إلى رسول الله فأجهشتُ بالبكاء وركبنى عمر وإذا هو على أثرى . فقال رسول الله: مالك ، مالك يا أبا هريرة ؟ قلت لقيتُ عمر وقال ارجع . فقال رسول الله : يا عمر ما حملك على ما فعلتَ ؟ قال يا رسول بأبى أنت وأمى ، أبعثت أبا هريرة بنعليك هاتين من لقى يشهد أن لا إله الله مستيقنًا بها قلبه يبشره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال: لا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون فقال رسول الله ﷺ : فخلهم " .

هذا رجل يعرف عظيم حق الله على عباده .

وأن هذا الحق لا يختزل فى كلمة يقولها المسلمُ .

واستيقان القلب بتلك الكلمة مسألة قد لا يعيها الكثيرون وأمر لا يُعتمد عليه ، ومن ذا الذى يحكم أن قلبه قد بلغ مبْلغ اليقين ؟

وقدْ يفهم البعضُ كلمة (بشرته) بالجنة أنه استحق واستوجب دخول الجنة لمجرد أنه أعلن الشهادة ، مع أن المقصود بكلمة (بشره) فرَّحه أو أدخل عليه السرور ، مثل قولك للطالب : من يذاكر فبشره بالنجاح . فالتبشير فى حد ذاته ليس ضامنًا للنجاح وقد يذاكر الطالب ولا يوفق إلى النجاح ، لخلل انتاب المذاكرة فليس أى مذاكرة تؤدى إلى النجاح .

فالتبشير هو مجرد أخبار مع إفادة الفرح والسرور ... وقال الفخر الرازى أثناء تفسير قوله (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) " التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشرة تغيُّرا وهذا يكون للحزن أيضا فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين "[1]

و" قال الزجاج معنى يَبْشُرُك يَسُرُّك ويُفْرِحُك وبَشَرتُ الرجل أبْشُرُه إذا أفرحته وبَشِرَ يَبْشَرُك من البشارة ، قال وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور ومن هذا قولهم فلان يلقانى ببشر أى بوجه منبسط "[2] .

كلمة قالها رسول الله ﷺ وهى من جوامع الكلم ، مبتغيا بها أسمى وأرقى وأعلى مرتبة يصل إليها المسلم ، معتمدا على قوة وإيمان ويقين المسلم ، فاتحا أبواب الأمل على مصراعيه ليلج المسلم إلى رضوان الله وجنته .

رغبات وطموحات نبى ، بقومه رءوف رحيم ، وهذا من شأنه أن يدفعَ المسلمَ لمزيد من الطاعات وتفان فى عمل الصالحات ، وتسابق فى فعل الخيرات ، فقد وضح واستبان الطريقَ إلى الجنة ، ولم يبق إلا العمل الذى يتناسب مع الجائزة الكبرى

هذا هو قصد النبى ونيته ، والدليل على ذلك الحديث (روى البخارى عن المغيرة كان ﷺ يقوم حتى تتورم قدماه أو ساقاه ، فقيل : لم هذا وقد غفر لك ؟ فقال، أفلا أكون عبدًا شكورًا) .

غفرانٌ وصفحٌ من الله يقابله مزيد من العبادات واجتهادات فى الطاعات وتفان فى تحقق العبودية لله امتنانًا وشكرًا على فضل ونعم الله .

١- تاج العروس - الجزء الأول - (٢٥١٤).
٢- لسان العرب - الجزء الرابع - (٥٩)

ولكن عمر أدرك أن ليس كل الناس على هذا الوعى والفهم ، فضمانُ الجنة مدعاة للتقصير والتفريط ، لأنهم يفهمون أن العمل يصل بهم إلى الجنة ، أما وقد ضمنت الجنة بكلمة تقال ، كل رصيدها يقين فى القلب ، فما لنا وإجهاد النفس وتجشيمها مشقة العبادات والطاعات ؟! .

حتى وإن حملنا النفس على العبادة وعمل الخير ، فليس هناك مبررٌ لتكليفها ما يشق عليها .

مراجعة رجل يفهم ويعى عظيم وجليل حق الله على العباد وأن الجنة ليست ثمن الطاعة ، لأن العبادة صادرة من الإنسان لأن هذا حق الله على العبد . أما الجنة فهى نوعٌ من فضل الله ورحمته ، إن شاء أنعم ومنَّ بها وإن لم يشأ فلا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته.

مراجعة رجل يفهم ويعى خبايا النفس الإنسانية ونوازعها ، ويعرف أن النفس متى اطمأنت إلى شىء وضمنته ، مالتْ إلى التقصير والإهمال فلا شىء يحفزها إلى العمل والإسراع إلى إنجازه قدر الخوف والقلق عليه ، وتخشى أشد ما تخشى الخسران والضياع .

ولم يخطىء عمر فى حق أحد من الرعية إلا ولام وأنَّب نفسه حتى ولو كان هذا الخطأ ضربة هينة من درته ، ولا يكتفى بذلك بل يعمد إلى مبدأ القصاص ويتمادى فى ذلك ويدفع تعويضًا للذى ناله ضررٌ .

" عن عاصم بن عبيد الله قال : كان عمر بن الخطاب تحت شجرة فى طريق مكة فلما اشتدت عليه الشمس أخذ عليه ثوبه وقام ، فناداه رجل غير بعيد منه يا أمير المؤمنين هل لك فى رجل قد رثدت حاجته وطال انتظاره ! قال : من رثدها ؟

قال : أنت . قال : فجاراه القول حتى ضربه بالمخفقة .

فقال : عجلت على قبل أن تنظر فىَّ ، فإن كنت مظلومًا رددت إلىَّ حقى وإن كنت ظالما رددتنى .

فأخذ عمر طرف ثوبه وأعطاه المخفقة . وقال له : اقتص ! .

فقال : ما أنا فاعل . فقال : والله لتفعلن أو لنفعلن كما يفعل المنصف من حقه ! .

قال : فإنى أغفرها فأقبل عمر على رجل . فقال : أنصفه من نفسى أصلح من أن ينتصف منى وأنا كاره ، فلو كنت فى الإدراك لسمعت - عمر - يعنى بكاءه "

هذا رجل يشكو عمر إلى عمر ، إنه انتظر طويلا كى يعرض حاجته ومسألته على عمر وعلى ما يبدو أن الرجل قد نفد صبره من طول الانتظار وكان حديثًا بين الرجلين انتهى بضرب عمر الرجل بالمخفقة ؛ غضب الرجل من عمر ، وقال له إنك لم تنظر فى شكواى ولم تتخذ أحد أمرين إما أن تنصفنى وترد حقى إذا كنت مظلومًا ، وإما أن تكفنى عن ظلمى إن كنت ظالمًا . عمر أخطأ فى حق الرجل .

وكثيرون من الحكام يخطئون ، وهذا الخطأ تدفع ثمنه الشعوبُ والأممُ لعشرات السنين .

وكثيرون من القضاة يخطئون ، ويظل المظلوم حائرًا بين المحاكم ومكاتب المحامين محاولاً أن يصحح خطأ القاضى غارمًا من الجهد والمال والوقت الكثير وقد يوفق فى مسعاه وقد يخيب .

ونسمع ونقرأ ونشاهد أن قضاة أصدروا أحكامًا بالسجن وبعد قضاء المسجون سنوات سجنه الطويلة يكتشفُ الخطأ . ولا ضير يقع على القاضى .

والشعوب قد تتسامح فى خطأ الحكام ، بل هناك من يدافعون عن هؤلاء الحكام ويبررون أخطاءهم .

ولكن عمر لم يجادل الرجل ، ولم يطيب خاطره بأن يقضى حاجته وينظر فى شكايته وإنما جنح إلى القصاص ، وبالمخفقة التى ضربه بها ، أعطاه إياها وقال له: اقتص .

رفض الرجل .

أصر عمر .

ولكن الرجل غفرها له .

إلى هنا والأمر وصل إلى نهايته .

ولكن مع عمر لم ينته .... لجأ إلى رجل وطلب منه أن يقوم بعملية القصاص رجل ليس طرفًا فى الموضوع ولا علاقة به ، لم ؟!! .

كى لا تبقى فى نفس عمر حزازة أو كراهة للرجل الذى أنصفه من نفسه ؟ لا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك على تلك الحادثة ، ومهما قلنا فلن نضيف جديدًا لجلال وعظمة ودلالة هذه الحادثة .

" عن جابر الجعفى . أنه سمع سالم بن عبد الله قال : نظر عمر إلى رجل أذنب ذنبًا فتناوله بالدرة فقال الرجل : يا عمر لئن كنتُ أحسنتُ فلقد ظلمتنى ، وإن كنتُ أسأتُ فما علمتنى ! . قال : صدقت فاستغفر الله ، دونك فاقتد من عمر . فقال الرجل : أهبها لله وغفر الله لى ولك " .

هنا أخطأ عمر أيضًا .

مع أن اللوم يقع على الرجل ، فقد أذنب ذنبًا ، وظاهر الأمر يحكم بذلك ، وإن كنا لا نعرف ما هو الذنب ، فلا يوجد هنا إجراءات الضبط والتحقيق وإحالة القضية إلى جهة مختصة ... وظروف الزمان والمكان ...

الحاكم يرى رجلاً يرتكب ذنبًا ، فيعاقب عليه فورًا .... ثم إن العقاب لا يمثل ألمًا جسمانيا بقدر ما هو نوع من الردع والتأديب ، أو لنقل بالمصطلح الحديث (لفت نظر) .

ويقول الرجل لعمر : أنت لم تسألني ، ولم تحاكمني ، فربما ما فعلتُه ليس بذنب ، فلو كان هذا فقد ظلمتني ، وإن كان ما فعلتُه ذنبا فربما فعلتُه عن غير قصد وعن غير عمد أو فعلته بجهالة ، فالمفروض أن تعلمني أن هذا ذنب يُعاقَبُ عليه وكما يقولون : (لا تجريم إلا بنص) .

ولكن هذا ما حدث .

وتأمل سلوك عمر ... طلب الغفران من الله ، فقبل أن يكون الخطأ في حق الناس هو في حق الله .

ثم بعد ذلك ... عمر يعرض على الرجل القصاص .

الرجل يرفض !! .

الجميع يرفضون القصاص من عمر !! .

هل يرفضون لأنهم يهابون عمر ؟

نعم .

ولكنهم هل يهابون عمر لأنه محاط بالحرس والجلادين والحاشية ؟

أم أنهم يهابونه لأنه يمثل سلطان الله في الأرض ، ولأنه يمثل الوازع الديني والخلقي والضمير الجماعي .

إن تكن الأولى فإن عمر يدور في مصاف الحكام المستبدين الذين يحكمون بالحديد والنار ..

وإن تكن الثانية فإن عمر يمثل العدل والإنصاف بل قمة العدل والإنصاف إنها نفسٌ نبيلةٌ ، لا تنسى الإساءة مهما صَغرتْ ، وإن لم يدفع تعويضًا من ذات النفس وهو القصاص يدفع تعويضًا من ذات اليد.

" عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مرَّ عليّ عمر بن الخطاب وأنا فى السوق وهو مار فى حاجة له ، ومعه الدرة فقال: هكذا أمط عن الطريق يا سلمة . قال ، ثم خفقنى فما أصاب إلا طرف ثوبى ، فأمطت عن الطريق فسكتَ عنى حتى كان العام المقبل فلقينى فى السوق . فقال : يا سلمة أردت الحج العام ؟

فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيدى فما فارقتْ يده من يدى حتى دخل بى بيته ، فأخرج كيسًا فيه ستمائة درهم فقال : يا سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتُك عام أول . فقلت : يا أمير المؤمنين ما ذكرتُها حتى ذكرتنيها ! قال : والله ما نسيتُها بعد ".

" فأخذ بيدى فما فارقت يده من يدى " ابحث عن عنوان تضع تحته تلك الجملة أو ابحث عن بند أو لائحة أو قانون فى دساتير العالم كله يفسر هذا الموقف فلن تجد .

" ستمائة درهم تعويض عن الخفقة التى خفقتك عام أول " العقوبة عند عمر لا تسقط بالتقادم ، عام كامل يمر ، رغم الأعباء والمهام الصعبة وتنظيم دولة ، ورعاية أمة ومتابعة جيوش فى الشام والعراق ومصر ، ومراقبة ولاة .... إلخ ، لم ينس عمر ضربة لم تصب إلا طرف ثوب سلمة ، ويمر عليها عام ... يدفع الحاكم من حر ماله ستمائة درهم !! .

ونحن فى العصر الحديث لا نريد من الحكام أن يسيروا سيرة عمر ، فهذا شىء محال - كما قلنا - ولكن الشعوب تريد من حكامها أن يسيروا بمحاذاة عمر ، أن تضعه أمامها

لتتأمله ، أو لتعرف أنه في زمان ما ، وفي مكان ما ، كان هناك حاكم لم يكن يأكل أو يشرب أو ينام أو يصحو أو يتنفس إلا ليعدل ، ويصلح .

وتجد رفقه وحرصه وعطفه يفيض من الإنسان حتى يشمل الحيوان الأعجم "عن سلام بن صبح التميمي قال ، قال الأحنف بن قيس ، وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فقال أين نزلتم ؟

فقلت في مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ ركائبنا هذه فجعل يتخللها ببصره ، ويقول ألا اتقيتم الله في ركائبكم هذه ؟ألا علمتم أن لها عليكم حقا؟ ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض ؟

فقلنا يا أمير المؤمنين ، وإنا قدمنا بفتح عظيم ، فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرهم " .

أهم ما يشغل أي حاكم الفتوحات ، لاسيما ولو كان الفتح عظيمًا ولكن عمر ليس أي حاكم ... لم يكترث للأمر ، ولم تأخذه زهوة النصر ، وذهب ليتفقد الركائب وعلى ما يبدو أن الفاتحين شغلهم تبليغ عمر والمسلمين بهذا الفتح ، فتركوا الركائب ولم يحرروها ، ولم يقدموا لها الطعام والماء .

والرفق بالحيوان فرع متفرع من الرفق بالإنسان ، أو قضاء الحق مهما كان هذا الحق هينًا وبسيطا ، سواء أكان هذا الحق متعلقًا بالإنسان أي إنسان أم بالحيوان .

الفصل الخامس :

العمرية حلم الأجيال

العمريةُ حلمُ الأجيال

لو قرأ (عمر) ما كتب عنه ما وافق على أكثره ، ولعاتب الكتاب والمؤرخين ، وأظن أنه قد يجمعهم فى صعيد واحد ويعطيهم درسًا فى كيفية الكتابة ، وإن عماد الكتابة - أى كتابة - الإنصاف وتحرى العدل ، وإن كان هذا شيئا عسيرًا ، فليس أقل من التنزه عن الهوى حبًّا أو كرْهًا .

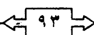
وأغلب ما كتب عن عمر كان نوعًا من الإسراف عليه . هذا الإسراف ، لا أقول إنه أعطى عمر أكثر مما يستحق - فكل ما كتب عن عمر لم يوفه حقه - هذا الإسراف باعد بين عمر وبين الاقتداء به عمليًّا ، جعل الأجيال التى تلته تنظر إليه نظرة ملؤها الإعجاب والإجلال والتقدير ، هذا الإحساس جعل من عمر سورة من سور العظمة ، وآية من آيات الكمال والسمو الإنسانى ، ومن شأن العظمة والكمال أن تقطع ظهر من يحاول أن يتسنم ذراهما .

لن نلقى مثل عمر ، لن نلقى مثل عمر ، لن نلقى مثل عمر :

والأمر سواء بالنسبة للحكام والمحكومين .

فلا الحكام على استعداد أن يقتدوا بعمر ، لأنهم إن فعلوا ذلك لن يوفقوا إلى بعض ما وفق إليه عمر ، لأنهم لم يؤتوا مثلما أوتى عمر ، وأخشى ما يخشونه أن يوسموا بالفشل أو العجز فى الوصول إلى ما وصل إليه وقد حدث هذا مع من تولى الخلافة بعده وهو (عثمان بن عفان).

" عن ابن سيرين . قال : كتب عمر إلى أبى موسى : إذا جاءك كتابى فأعط الناس أعطياتهم واحمل إلى ما بقى مع زياد .. ففعل ، فلما كان عثمان كتب إلى أبى موسى بمثل



ذلك ففعل ، فجاء زياد بما معه فوضعه بين يدى عثمان ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا بذاته ، من فضة فمضى بها . فبكى زياد ، فقال له عثمان : ما يبكيك ؟

قال : أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهمًا فأمر به فانتزع منه حتى أبكى الغلام وإن ابنك هذا جاء فأخذ هذه فلم أر أحدًا قال له شيئا . فقال له عثمان : إن عمر كان يمنع أهله وأقاربه ابتغاء وجه الله ؛ وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ، ولن نلقى مثل عمر ، ولن نلقى مثل عمر ولن نلقى مثل عمر " .

" عن إسماعيل بن أبى خالد قال : قيل لعثمان رحمه الله : ألا تكون مثل عمر؟

قال : لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم " .

هذا كلام أمير المؤمنين الذى تولى الخلافة بعد عمر ، يعلنها صراحة ، وبكل شجاعة بالرغم من أن الناس قريبو عهد بحكم عمر ، و مازلوا يعيشون فى ظلاله ومازالت آثار أقدامه وهى تجوس الطرق والدروب باقية وعبق شخصيته يضوع فى الأرجاء ، وصدى كلماته يتردد فى الأنحاء وروحه الشريفة تحل بالأزمنة المباركة والأماكن الطيبة . فليس أيسر على سيدنا عثمان بن عفان أن يأخذ المسلمين بما أخذهم به عمر ، ويسير فيهم سيرته فقد مهَّدَ له الطريق ، وذلل له كل حَزن ووعر ولكن الخليفة الجديد أدرك أن الأمر أكبر من ذلك وأخطر ، إن من الصعب بل من المحال أن يحل أحد محل عمر ، فالأمر ليس منصبًا يُدارُ فور أن يشغله شاغلٌ ، ولا مقعدا شاغرا ينتظر من يجلس عليه ليستأنف دولاب العمل دورته .

والناس مغرمون بالمقارنة ، بين سابق ولاحق ، وكان المسلمون ينتظرون من عثمان أن يكون عمر آخر ، ولكن الخليفة الجديد قطع عليهم رجاءهم هذا ورد عليهم أمانيهم ، فلا أحد يستطيع أن يحل محل عمر ، ولا أنا أستطيع أن أكون عمر ، وكما قالها عمر بعد أن

تولى الخلافة فى حق الصديق (رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده) وقيلت فى حقه " رحم الله عمر لقد أتعب من جاء بعده " إلى اليوم وبعد اليوم.

وبالنسبة للمحكومين ، فليسوا على استعداد أن يطالبوا حكامهم أن يسيروا سيرة عمر ، لأنهم يعلمون أنهم إن طلبوا هذا الأمر من الحكام فسوف يكلفونهم من أمرهم عسرًا والناس فى هذا الزمن رفقاء بحكامهم أشد الرفق ، ويدعون لهم فى صلواتهم بالسداد فى آرائهم ، وبالتوفيق فى أعمالهم ، متمنين أن يستجيب الله لدعائهم ، فهم يلتمسون الرضا من الحكام ، أكثر وأحرص مما يلتمسُ الحكام الرضا منهم !!.

والناس فى كل الأجيال - لاسيما الأجيال المتأخرة - متعطشة إلى إيجاد العظماء والعباقرة الأفذاذ بين ظهرانيهم ، وإن عثرتْ على أشباههم فى الواقع خلعتْ عليهم صفات العظمة والسمو ، وأسرفت فى ذلك إسرافًا شديدًا ، وإن عزَّ عليها أن تجدهم فى واقع حياتها تلمستهم فى الخيال والوهم ، ونسجتِ الحكايات وحاكتِ الأساطير . فالأجيال تستطيع أن تتصور أن تخلو حياتها من أى شىء إلا أن تخلو حياتها من عظيم هنا وعبقرى هناك ، وبطل بين يديها ، فهذا يعطيها عِوضًا عن الإحساس بتفاهة حياتها، وضآلة طموحاتها ، ويحمل عنهم عبء العمل والجد ، ويريحهم من تعذيب ضمائرهم وتأنيب نفوسهم على ما ينفقون أعمارهم فى عبث ولهو وهزْل .

ونحن لا نستطيع أن نحذف ما أضافته الأجيال المتعاقبة إلى سيرة عمر من مبالغات وزيادات ؛ لأن تلك الزيادات والمبالغات تصور نفسية تلك الأجيال ، والمثل التى تطمحُ إليها ، ونظرتها إلى ما يجب أن يكون عليه العظيم .

وتلك المبالغات والزيادات ليست تحريفا لصورة العظيم أو تزييفًا لها ، لأنها فرصة تجدها الأجيال لتشبع حرمانها ، وتروى ظمأها إلى الخير والعدل .

فلا ضير أن أتزيد فى عدل رجل ينصف أصلا بالعدل فأنا لم أنحله شيئًا غريبًا عنه أو أصفه بصفة هو خالٍ منها وكل ما فعلتُه أنى نظرتُ من خلال العظيم إلى قيمة العدل مجردة أو أن العظيم وبما يتصف به من صفات ، منح فرصة للأجيال أن تشارك فى مفهوم العظمة ، وتصل بالصفات إلى منتهاها وغاية ما تصل إليه

فإذا نظرنا إلى ورع عمر فهو الورع الذى لم تعرف الإنسانية مثله . وإذا نظرنا إلى عدل عمر فهو العدل الذى لم تعرف الإنسانية مثله وقس على ذلك جميع صفات عمر .

ولا يعنينا بعد ذلك أن نسأل : هل وصل عمر إلى تلك الدرجات العلا أم لا ؟

هل تسنم عمر تلك الذرى التى دونها ذرى أم لا ؟

" فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها . ومن شاء فليشك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك ، وليسقط منها ما بدا له الإسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبرًا يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على فطنته ولا سبيل إلى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار" [1] .

فالأجيال وجدتْ فى عمر ما لم تجده فى غيره .

والأجيال إذا أنصفتْ رجلا ، فلا محيص لها عن هذا الإنصاف لأنها قلما تنصف !

وإذا أسرفتْ فى هذا الإنصاف فلا مندوحة لها ، لأنها ليس من شيمتها الإسراف فى الإنصاف والحمد مثلما هى مسرفة فى الذم والعيب والتنقص !

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (٦٣)

وعلى قدر خلو جيل من الأجيال من الجد والعمل وتحقيق الأعمال العظيمة والرقى بحياتهم . على قدر إسرافهم ومبالغتهم وحرصهم على البحث عن عظيم وإيجاد مكان له فى حياتهم ، أو خلقه ليكونوا على علاقة قوية به .

لأن إحساسهم بنقصهم يدفعهم إلى سد هذا النقص ، وجبر هذا الصدع فيلتمسون من يخرجهم من هذا التيه ، ومن يعبر بهم تلك الهوة الواسعة بين ما هم عليه ، وما يطمحون إليه . على هذا فكل جيل كان يضيف إلى عمر شيئا أو يسرف أو يبالغ والذى دفعهم إلى ذلك فقر زمانهم وجدب حياتهم ، وخلوها مما يعوضهم عن تلمس شخصية مثل عمر أو غيره

ولكن لماذا لم تأخذ الأجيال عمر كما خلقه اللّهُ ؟

ولماذا لم تأخذ الأجيال عمر كما أراد هو أن يكونه ؟

منزها عن كل إضافة ، خالصًا من كل مبالغة ، خاليا من كل زيادة ؟

ذلك لأن عمر استحال إلى قيمة ، إلى مبدأ ، إلى معنى من معانى العدل والخير والجمال .

فحينما تذكر الأجيال عمر ، تذكر تلك القيم والمعانى منسوبا إليها عمر ، ولا ينسبونها إلى عمر ، وفرق كبير أن تقول عدل عمر وعمر العادل .

عندما تقول عمر العادل ، فأنت تذكر رجلا وُصِفَ بالعدل ، عُرف عنه العدل اشتهر به . وهؤلاء كثيرون فى كل الأزمنة ولكن حينما تقول عدل عمر ، فأنت تشير بذلك أن هذا الرجل أصبح قيمة فى حد ذاته ، معيارًا يُقاس به كل صور العدل ملهمًا يستلهمه كلُّ من يريدُ أن يدرك العَدْل فى أنصع صوره وأجل معانيه

والقيم والمعانى خارجة عن كل تحديد وتحجيم ، وخروجها عن التحديد والتحجيم هو الذى جعلها قيمة ومعنى . هو ما منحها صفة الإطلاق ، على هذا فتلك القيم والمعانى للعدل

من المحال تطبيقها أو تحقيقها فى الواقع ولكن ليس كل ما لا يطبق فى الواقع منعدم الأهمية ، بل ربما تكون أسمى وأعظم الأشياء ما لا تطبق فى واقع الناس ، لأنها تضع لهم حدًّا لم يصلوا إليه فى وقتهم الحاضر وواقعهم المعاين حلمًا جميلاً ، رؤيا رائعة لعلهم فى يوم من الأيام يحققونها ، طالما هى قابعة فى قلوبهم ، تعتمل فى صدورهم ، فالقلوب والصدور واقع ، وما يوجد فى القلب ، وما يعتمل فى الصدر ليس ببعيد ولا بغريب أن يعاين بالنظر ويلمس بالحواس .

الفصل السادس :

القوة عماد العمرية

القوة عماد العمرية

إذا تأملنا معانى كلمة (قوى) فى أى معجم من المعاجم ، فسنجد أن كلَّ معنى من تلك المعانى آخذ من صفات عمر بسبب ، أو أن عمرَ آخذ منها بسبب وكأن لم توضع تلك المعانى للكلمة إلا لتوفى عمر حقَّه من القوة ، أو لم يحز عمرُ من الصفات إلا ليجسد تلك المعانى .

فمن معانيها : ضد الضعف .

ومن معانيها : المؤثر الذى يغير .

ومن معانيها : مبعث النشاط والنمو والحركة .

ومن معانيها : الاعتدال على الأمر والدوام والثبات .

ومن معانيها : وفَّى حقه .

ومن معانيها : تقويم المعوج .

ومن معانيها : حساب الزمن بالسنة والشهور والأيام .

ومن معانيها : العدل .

ومن معانيها : عماد ونظام الشىء .

ومن معانيها : ولاية الأمر .

ونجد أنه لا معنى من تلك المعانى إلا ونجد صلة وثيقة بينه وبين عمر ، فإذا أطلقنا لفظ القوة وقصدنا : ضد الضعف ، وجدنا أن عمر عنوان لهذا المعنى ، فهو قوى فكرًا وقوى وجدانا ، وقوى نفسا وقوى جسمًا ، وإن بحثت فى شخصيته عن موطن ضعف فسوف يعجزك هذا البحث ولن تظفر من خلاله بطائل ، ولا نريد أن نقول إن عمر خال من

مواطن الضعف ، فلو قلنا ذلك لسلبنا صفة الإنسانية منه وخير له وخير لنا أن نعترف بصفة الضعف له وكذلك صفة الإنسانية ، من أن نعترف بصفة القوة لنسلبه صفة الإنسانية . فهو رجل كان يشغله مناطق ضعفه فكان أشد ما يكون تقوية وتحصينا لتلك المناطق ، حتى إنها لتستحيل إلى مراكز قوة وبأس . ولكن لا ينبغى أن يخدع الناظر أن وراء هذه القوة والبأس رصيد هائل من الرحمة واللين : " ويكون الرجل خشنًا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء بل كثير ما تكون الخشونة الظاهرة نقابًا يستتر به الرجل القوى فرارًا من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة ، فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرًا من ظهورها " (١) .

وأشد ما يكون الرجل ضعفًا أمام المرأة ، مع تفاوت درجات هذا الضعف من رجل إلى آخر ، وشىء طبيعى أن يكون الرجل ضعيفاً أو مستسلما إزاء المرأة فماذا سيفعل بقوته وبأسه أمام هذا المخلوق الضعيف ، لاسيما إذا كانت باكية أو شاكية، وهاتان أفضل حالتين تصطنعهما أو تتقنهما المرأة لتستدر عطف وحنان الرجل : " أما المرأة الشاكية أو الدامية ، إذا واجهتْ ذلك البطل القوى فما حاجته إلى قوته ونضاله ؟وما أحرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها ، كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق ، وليس لها صوت مسموع ، وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين "(٢)

وأدرك عمر – وهو الإنسان – أن الضعف أمام المرأة ، شىء طبيعى ، تحتمه طبيعةُ الرجل القوية من ناحية ، وتفرضه طبيعة المرأة الضعيفة من ناحية أخرى وإنه قد يؤتى

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (٣٩)
٢- المرجع السابق - (٤١)

من تلك الناحية ، فأقام الكثير من الحواجز والحجب كى يقوى من أمر تلك الجهة ، ويحول بين ضعفه وولوج المرأة إليه منها . وكثرة الحواجز والحجب دليل على الضعف وليستْ دليلا على القوة : " وأكثف ما تكون الدروع أرقّ ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود . أين أكثف ما تكاثفتْ الغلظةُ فيه من درع عمر التى عنيناها ، المرأة ولا نزاع "[1] .

ولأن الرجل - أى رجل - لا يجد مبررًا للاعتصام بقوته وبأسه أمام المرأة لذا تنقلب القوة هنا إلى ضعف ، ولأن المرأة تجد الرجل أصبح أعزل أمامها من قوته وبأسه . تلجأ بحكم المنطق والطبيعة - إلى الاستحواذ والسيطرة ، فها هو سجانها، وها هو مالكها ، وها هو سيدُها قد أصبح طوع بنانها ، وتلجأ إلى الأسلحة التى زودتها الطبيعةُ بها من مكرٍ ودهاءٍ وإغراء ولين ونعومة ورقة ، فينقلب الضعفُ إلى قوة .

لذلك كان عمرُ شديدًا على المرأة ، وشديدًا على نفسه منها ، وكان على حذر من مكرهن وخداعهن ، ولذلك أوصى : " عليكم بالأبكار لأنهن أكثر حبًّا وأقل خبًّا " وخشى على العرب وهم أولاد الصحراء الذين تعودوا الخشونة ، وألفوا البداوة ، من النساء الأجنبيات بنات الحضارات اللائى تعودن على الحياة الرخية الناعمة وأتقنَّ أساليب كثيرة لإغواء الرجل والتأثير والسيطرة عليه فقال : " فى نساء الأعاجم خلابة فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم " .

١- المرجع السابق - (٢١٩)

وبداية سيطرة المرأة على الرجل أن تتدخل فى صميم عمله وشئونه ، وأن يكون رأيها هو الغالب ، وأمرها هو النافذ ، ولم يعجبه موقف الأنصار من نسائهم حينما هاجر إلى المدينة ، فهو يعلم أن اندفاع المرأة فى التحكم والسيطرة لا يقف عند حد فهى كائن ظمآن بل محروم من السيطرة والتحكم ، فإن وجدت إلى ذلك سبيلا ، فلا هى قانعة بما أسلس لها الرجل من قياده ، وهى مقتنعة بما ملكته من أمر الرجل يقول " .... كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، وصحتُ على امرأتى فراجعتنى فأنكرتُ أن تراجعنى . قالتْ : ولم تنكر أن أراجعك ؟ ... فو الله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ".

رجل عاش عمره كلفا أن يضع حدودًا للأمور ، وألا يجعل أمرًا يجور على أمرٍ كل شىء عنده بالقسطاس المستقيم ، فللرجل حدود ينبغى ألا يتجاوزها من ناحية المرأة ، ألا يظلمها وألا يجور على حق من حقوقها ، ولا يظن ظان أن عمر كان متحجرَ القلبِ من ناحية المرأة ، أو أنه كان يعاديها ، ولكنه كان ينظر إليها كما ينظر إلى كل شىء ، ويضعها فى إطارها اللائق بها والمناسب لها، بدون إفراط أو تفريط ، وهو لا يعتصم بكبرياء الرجولة وأنفة العربى ، وسطوة الحاكم من أن يسفه رأى المرأة بل قبل رأيها وسدده ، وعدل عن رأيه: " عن مسروق بن الأجدع قال ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس ، فقال يأيها الناس ما أكثاركم فى صدقات النساء ! فقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات ما بين أربعمائة فما دون ذلك ، ولو كان الأكثار فى ذلك تقوى أو مكرمة لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم

قال : ثم نزل فاعترضته امرأةٌ من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنهيتَ الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أو ما سمعتَ ما أنزل الله فى القرآن ؟

قال : وأى ذلك ؟

قالت : أو ما سمعتَ الله يقول : " وءاتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينًا ".

فقال عمر : اللهم غفرًا ، كل إنسان أفقه من عمر ! .

ثم رجع فركب المنبر ثم قال أيها الناس ، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على اربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله وأحب وطابت به نفسه فليفعل " .

رجلٌ يؤمن بأن للمرأة شخصيتها المستقلة ، ورأيها السديد ، وحريتها أن تناقش وتراجع الحاكم ، وتخالفه الرأى طالما لديها الدليل والحجة . وشهد لها بذلك، ليس قولا ولكن فعلا ، صعد المنبر ورجع عن رأيه . فهى مخلوق له احترامه وتقديره طالما حازتْ على الصفات والمؤهلات التى تستوجب هذا الاحترام والتقدير يمنحها ما تستحق ، ولكنه فى نفس الوقت لا يسمح لها أن تتجاوز حدودها أو تطالب بما ليس لها بحق من السيطرة والتحكم والاستبداد وبرأيها ، بدون سند من الحق والمنطق .

ومن خلال التقوية المتعمدة والتحصين الدائم لهذه الناحية ، وجدنا أن النساء يهبن عمر أكثر من الرجال ، بل يخفنه ويزهدن فى التزوج به ، وهو أكبر وأعلى رجل فى الدولة فقد خطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين (عائشة) رضى الله عنها

فقالت له : الأمر إليك . ثم سألتْ أختها فأبته وقالت : لا حاجة لي فيه . فزجرتها قائلة أترغبين عن أمير المؤمنين ؟

قالت : نعم إنه خشن العيش شديد على النساء .

ولم يكن عمر شديدًا على النساء لأن فيه فظاظة وغلظة ، ولكنه شديد على ما يمثلنه من غواية وفتنة ، أو إن شدته كانت نوعًا من الوقاية والحماية والرقابة من أن يتسلل إليه ضعفٌ أو وهنٌ من ناحية المرأة وهو الرجلُ القوى .

والأولاد أيضًا يمثلون نقطة ضعف ، وكان عمر أقوى ما يكون أمام هذا الحب الغريزي ، حب الأب لأولاده ، هذا الحب الذي قد يؤدي إلى فتنة الإنسان في دينه ويجعله يضحي بكل شيء في سبيل إرضائهم وكثيرا ما تسرب الفسادُ إلى الحاكم ومن ثَمَّ إلى الحكم من ذوى الحاكم وأقربائه . وقد يكون عالمًا بهذا الأمر أو في غفلة عنه ، أيًا ما كان الأمر فإن تلك ناحية قد يؤتى منها الحاكم ، وكون عمر هو الحاكم لم يكن نعمةً لأولاده ولأقربائه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان نقمة ووبالاً عليهم "ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم (أن الناس ينظرون إليكم نظرَ الطير إلى اللحم) ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة" .

وكان يعنف ولاته ويشتمهم ، إن هو شعر أن هذا الوالي أو ذاك يجامل أو يحابي أولاده من أجله ، وخطابه لعمرو بن العاص ، حينما عرف أنه لم يقم على ابنه (عبد الرحمن) الحدَّ مثل بقية أفراد المسلمين ، وإنما أقام عليه الحد في صحن داره .. تأمل الخطابَ الذي أرسله عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر آنذاك :

"بسم الله الرحمن الرحيم ... من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاص:

عجبتُ لك يا بن العاص ولجرأتك علىَّ وخلاف عهدى .. فما أرانى إلا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفتَ أن هذا يخالفنى ؟ .. إنما عبد الرحمن رجلٌ من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين،ولكن قلتَ هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفتَ ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه فإذا جاء كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع) .

وحينما وصل عبد الرحمن جلده عمرُ وعاقبه من أجل مكانه منه ثم أطلقه

أرأيت قسوة مثل تلك القسوة من حاكم على وال من ولاته لأنه جامل ابن الحاكم بعض المجاملة ، إن تلك المجاملة فى عرف عمر جرأةٌ عليه ، وعقابها – فى عرفه أيضًا العزل وإساءة هذا العزل ، ويؤكد له أن ابنه عبد الرحمن لا يجب أن يعامل معاملة خاصة،فهو فرد من الرعية ، يسرى عليه كل ما يسرى على الرعية وحق الله مقدم على كل الحقوق ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال تعطيل هذا الحق أو المساومة عليه .

ولا يظن ظان أن عمر كان يتخذ هذا النهج مع ابنه بدون أن يشعر بعاطفة الأبوة تملأ كيانه ، ولا يظن ظان أن عمر كان سعيدًا وهو ينزل العقاب بابنه للمرة الثانية ، فهو يشعر بشعور أى أب يرى ابنه فلذة كبده يعانى ويتألم ، وقد تكون الجلدة قبل أن تمزق أديم الابن كان يشعر بها الأب عمر تلهب جلده وتصليه نارًا ولكن كان عمر يتحمل ذلك لأن هناك عاطفتين ، عاطفة الأبوة وعاطفة الواجب وعاطفة الواجب هى سيدةُ الموقف ، أو قل إن هناك عواطف كثيرة تتنازع عمر ولكن العاطفة المسيطرة والمتحكمة فى بقية العواطف أو الإحساس الرئيسى هو الواجب والحق والعدل .

وإذا تواجد هؤلاء تصرف عمر وفق ما يمليه عليه واجبه كحاكم مسلم ، مراعيا حق الله ، متحريا العدل ، يفعل هذا متجردًا من كل المشاعر والعواطف التى قد تبعده وتجعله

يزيغ عن الطريق المستقيم ، وهو يفعل هذا ولا إرادة له فى ذلك ، لأن العمرية تتملك عمر بدون أن يتملكها ، وتملى عليه أحكامها ومعاييرها ، بدون أن يملك ردها أو منعها ، كما وضحنا ذلك فى فصل سابق .

فهو لا يجامل أحدًا على حساب الحق فى وقت تكون المجاملة مبررة إلى حدٍّ ما وموقفه من (جبلة بن الأيهم) يجلى هذا الأمر ، فقد كان جبلة أميرًا نصرانيا أسلم وتبعه عدد كبير من قومه ، وفى أثناء موسم الحج داس أعرابى ثوبه ، فقام (جبلة) بلطمه، وذهب الأعرابى شاكيًا جبلة ، فقضى (عمر) للأعرابى أن يلطم الأمير وعلى مشهد من الناس، كما فعل (جبلةُ) مع الأعرابى .

وهناك شواهد وأمثلة كثيرة يضيق المقام عن حصرها ، فهو مثل القلعة الحصينة التى تدور حولها باحثًا عن ثغرة هنا أو ثلمة هناك فلا تجد ، لأنه فى غاية التيقظ فى غاية الحرص ، لا يحب أن يُؤخذ على غرة أو غفلة أو خطأ أو زلة ويعييكَ أن تنتظر منه شيئا من هذا .

المؤثر الذى يغير :

الإسلام قبل عمر ليس هو الإسلام بعد عمر .

المسلمون قبل عمر ليسوا هم المسلمين بعد عمر .العالم قبل عمر ليس هو العالم بعد عمر .

عمر فارق بين أمرين ، فاصل بين مرحلتين .

ومعيارٌ أوحدٌ للحكم على العظيم ، أنه فى نهاية الأمر قدرة خارقة وإمكانية جبارة على التغيير إلى الأفضل .

وبمقدار شمول وعمومية وعمق وأصالة واستدامة هذا التغيير بمقدار عظمة الرجل

أما أن الإسلام قبل عمر شيء وبعد عمر شيء آخر، فلا أحد يمارى فى ذلك لا سيما بعد أن سماه الرسول (بالفاروق) .

كان الإسلام فى أول أمره ضعيفًا كتلك الزبالة الخافتة الضئيلة، وسط صحراء مظلمة واسعة تنذر سماؤها بالأعاصير والعواصف والأنواء التى تتجمع لتطفىء هذه الدفقة من النور، وتقضى عليها إلى الأبد .

وكان الإسلام فى حاجة إلى من يحيل تلك الزبالة إلى شلال من النور إلى قاصف من الرعد، يزلزل أركان الضلال وقواعد الباطل ... وقد كان عمر.

وقد أعز اللهُ الإسلامَ بعمر، كما دعا رسول الله ﷺ بذلك، وكان عمر قد قعَّد للإسلام قاعدةً ينطلق منها من مكة إلى جميع بقاع العالم وبدأ الإسلام ينازل ويصارع بكل جرأة ويصدع بكل قوة، معلنًا عن نفسه بكل شرف، داعيا إلى الدخول فى نظامه بكل نبل وعزة.

المسلمون قبل عمر ليسوا هم بعد عمر:

فقد شعروا أن هناك جدارًا قويًّا كان يسند الباطلَ ويقويه، قد انتقل إلى صفوفهم فأحسوا أنهم يستندون إلى ركن شديد، كانوا من قبله يستخفون من الإيمان، فإذا بهم يجهرون به من بعده، كانوا من قبله يصلون فى الخفاء فإذا بهم يعلنونها، بل ويصلون فى جوف الكعبة .

كانوا من قبله يهادنون الكفار ويخشونهم، فإذا بهم يتحدونهم ويواجهونهم ويصدعون بالدعوة : "يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟

فقال ﷺ : بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم

قال : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن .

فما لبث النبى أن خرج فى صفين : أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ولهما كديد كأنه كد يدُ الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان وسماه النبى يومئذ بالفاروق" .

منذ تلك اللحظة حسم الأمر بين الإيمان والكفر ، بين المسلمين والمشركين ويستطيع أيُّ إنسانٍ أن يستنتج أن الأمر صائر إلى الإسلام والمسلمين وما هى إلا مدة وجيزة ويتبع كل من يعادى ويعاند ويخاصم ويحارب الإسلام هؤلاء النفر القليل الذين يتقدمهم محمد ﷺ وماذا يريد أى أصحاب دعوة جديدة أكثر من ذلك ؟

الإعلان عنها والجهر بها ، بل ويدخل صاحب الدعوة أهم معقل وحصن لقريش وهو المسجد الحرام حدث كل هذا بسبب رجل واحد ، هو عمر .

ولا نريد أن نسرف على عمر كثيرًا ، فإن أمر الدعوة كان سينتشر بعمر أو بدونه وأن الأمور صائرة إلى ما صارت إليه بعمر أو بغيره .

ولكن كفى بعمر فخرًا أن الأمور وهى صائرة إلى ما صارت إليه ارتبطت باسمه أو أنه هو الذى عجل بها أو أنه هو أول من اقترح ذلك ، أو أنه أول من اختار أسلوب المواجهة والتحدى ، هذا الأسلوب أعطى ثقة وقوة نفسية للمسلمين أهم إحساس كانوا فى مسيس الحاجة إليه ، شاهد من الواقع أنهم على حق ، وإذا كان هذا من شأنه أن يقوى المسلمين ويربط على قلوبهم ، فإنه فى نفس الوقت يضعف الكفار ، ويفل عزيمتهم ، ويجعل مقدمات الشك والريب يتسربان إلى نفوسهم أنهم على باطل وضلال .

حتى الهجرة التى تعتبر نوعًا من الفرار أو ضربًا من الهرب ، جعلها هذا الرجل نوعًا من التناطح والمجابهة : "قال على بن أبى طالب ﷺ عنه : ما علمتُ أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا ، إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب

فرسه وانتضى أسهما واختصر عنزته ومضى قِبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف فى البيت سبعًا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم شاهتِ الوجوه ! ... لا يرغم اللّهُ إلا هذه المعاطس ! ... من أراد أن يثكل أمه أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى"

أنا هو ... أنا هنا ... وغدا سأكون هناك .

من يستطع أن يمنعنى فليتقدم .

إذن لم الفرار يا عمر ؟

ولم الهجرة ؟

ولم الهرب ؟

ومن قال إن الانتقال إلى المدينة فرارٌ وهربٌ ؟

فمنذ أن هاجر عمر بتلك الطريقة ، وعلى هذا الوجه ، لم يعد هناك فرارٌ أو هربٌ وإنما نوع من المناورة ، وإعادة ترتيب الصفوف ، نوع من نقل الجبهة من ناحية إلى ناحية أخرى ، تغيير فى نوعية المواجهة ولكن لم فعل ذلك عمر ؟

وما الفائدة التى عادت عليه ؟

ألم يكن فى حسبانه أن يتعرض له مجموعة من الرجال الأشداء يضربونه ويمنعونه من الهجرة ؟ وهو فرد وهم جماعة ، وكما يقولون فى الأمثال (الكثرة تغلب الشجاعة) ؟

نعم كان عمر يتوقع أن يتصدى له مجموعة من الرجال الأشداء ويكونوا عليه لبدًا ويصارعهم ويصارعونه ، وقد يغلبونه .

ولكن العُمرية التى تتملك عمر وتملى عليه أفكاره وتصرفاته لا تنظر إلى الأمر من تلك الزاوية ، ولكن بداية تتلمس طريق الحق وتقصده وتسير إلى نهايته لا تحيد عنه يمينًا

أو يسارًا . ولا تستقرئ الواقع ولا تستنتج ما يترتب على استقراء هذا الواقع من نتائج على ضوئها يعدل سلوكه أو يغير من تصرفاته . هذه الأمور بعيدة كل البعد عن ظن العُمرية لا بدائل ولا حلول ولا اختيارات .

هما بديلان لا ثالث لهما . تواجه به كل ما يعن لها من معضلات . الحق أو الموت فإما أن يهاجر مهاجرة صاحب حق على رغم أنوف الكفار . وإما أن يموت ميتة تليق بصاحب الحق الذى لم يفكر لحظة فى أن يتخلى عن حقه

العالم بعد إسلام عمر أضيف إليه عظيم من طراز فريد ، أُثريتْ به الأخلاق والقيم والمبادئ . اكتسبت الإنسانيةُ نموذجًا من النماذج الإنسانية الراقية . فإذا تلمست الإنسانية أُرقى صورة من صور العدل لتعرضها على شعوبها لتطمح إليها وليتأسى بها الحكام . ولتتعزى بها الشعوب فلن تجد ذلك إلا فى عمر

وإذا تلمست أرقى صورة من صور الديمقراطية فلن تجد هذا إلا فى عمر

وقس على ذلك كل تلك الجوانب والنواحى التى تفوق فيها عمر على الآخرين ليس هذا فحسب ، بل جعل كل أفعاله ومواقفه معايير تقاس بها ، أفعال ومواقف أرقى وأسمى أصناف البشر . وعناوين مشرقة تندرج تحتها أشد ما تعتز به الإنسانية من صور الخير والعدل والجمال فى تاريخها الطويل .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف يكون الحُكمُ عبئًا وأَرَقًا وسُهدا وعذابًا وأمانة ثقيلة يتمنى صاحبُه أن يخرج من تلك الدنيا لا له ولا عليه .

عرَّف عمرُ العالمَ كلَّه كيف يكون الحاكمُ فى غاية الشفقة والرفق والرحمة على الأطفال واليتامى والأرامل والفقراء والعجزة . وكيف يكون فى غاية القسوة والشدة والغلظة على الظالمين والمفسدين والطغاة والجبابرة .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف يساوى الحاكم بين أفراد رعيته بغض النظر عن ألوانهم أو جنسياتهم أو ديانتهم .

عرَّف عمر العالمَ كلَّه كيف يتنزه الحاكم ويتعالى ويتسامى عن شهواته ونوازعه وعواطفه ، ويتجرد من كل ما من شأنه أن يجعله يحيد عن الحق .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف تكون العقيدة الصادقة الصحيحة هى مبعث كل تصرفات وأفعال الحاكم ، تمده بالقوة فى نصرة الحق ، بل تجعل الحق قوة تحطم وتسحق كل صور الضلال والباطل .

العالم كله قبل عمر كان يعانى نقصًا وانحرافا وخللا ... أما بعد عمر فقد أتم هذا النقص وقوم هذا الانحراف ، وجُبر هذا الخلل وكفى بعمر أن يوضع أمام أنظار العالم ليكون مدافعًا فى العصر الحديث - إن كان الأمر فى حاجة إلى من يدافع عن الإسلام وليد حض عن وجه الإسلام الناصع المشرق الوضاء كل فرية تُلصق زورًا ويهتانًا بالإسلام .

"جاهلى كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان ... ونفس ضائعة رُدتْ إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل ونفع بها أمته وأممًا لا تحصى وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء .

ونظرتِ الأممُ فرأت كيف تعلو النفسُ الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان . رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن

الناس ، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم" (١)

مبعث النشاط والنمو والحركة:

وماذا تكون القوة فى أوضح معانيها إن لم تكن القدرة الفائقة على النمو والحركة والتطور بهذا النمو من مرحلة إلى مرحلة أتم وأكمل من سابقتها ، ولم تنمُ وتؤسس دولة الإسلام – بداية – إلا فى عهد عمر ، نمو وتطور وتقدم وحركة مسرعة مطردة واتساع الدولة فى جميع نواحيها بالمعنى الحديث .

ونلاحظ إن الدول فى طور نشأتها ينصب اهتمامها على عنصر واحد من عناصر البناء ترى فيه عماد بنيانها ، تتفرغ له وتوجه كل طاقاتها وإمكاناتها لإتمامه والفراغ منه وقد تهمل بقية العناصر إيمانـًا منها أنها ليستْ هامة ، على الأقل فى الوقت الحاضر وإرجاءها إلى وقت آخر لن يضر ، بل قد ينفع لأنه يصرف الجهد للانتهاء مما تراه هامًا وضروريا .

فبعض الدول ترى أن أهم شىء هو الدساتير ، لأنها تحدد واجبات وحقوق كل فرد من أفرادها بدءًا من الحاكم وانتهاء بالمحكومين ، وإنه متى وضح هذا الأمر وضح أين يكون الإفراط وأين يكون التفريط ، أين يكون التزام كل فرد بحدود دوره وأين يكون الطغيان والتعدى والتجاوز أين يكون الصلاح والمصلح وأين يكون الفساد والمفسد ، ثم يأتى بعد ذلك وبعد الفراغ من هذا الأمر ، طبقات البناء الأخرى.

---

١ - عبقرية عمر – للعقاد (٩٠ – ٩١) .

وبعض الدول ترى أن تأمين حدودها والفتوحات التى تقوم بها الجيوش وامتداد حدود الدولة شرقا وغربًا شمالا وجنوبًا أهم ما يسهم فى البناء بناءً قويًّا لأنه سيؤمن حدودها من ناحية ، ومن ناحية أخرى سيجلب لها موارد تساعد فى البناء والتشييد .

وبعض الدول ترى الانكفاء على ذاتها والانغلاق على كيانها حفاظًا على هويتها فهى لا تعمل على الاتساع والامتداد ، ولا تسمح بالاختراق والنفاذ إليها فلا شاغل يشغلها عن بناء كيانها بجهودها الذاتية غير طامعة أو طامحة أن تكون دولة عظمى أو امبراطورية مرهوبة الجانب يعمل لها العالم حولها ألف حساب

وفى كل الأمور السابقة يكون البناء فى جانب على حساب جانب آخر فإذا كان الاهتمام منصبًّا على ناحية ما ، فستجد أن هناك إهمالاً فى جانب آخر

ولا نستطيع أن نقول على أى من تلك الدول أنها نمت ، لأن النمو فى حقيقته لا يكون فى جانب على حساب جانب آخر ، وإنما البناء فى حقيقته خاصية تتسم بالكمال والتكامل ، مثل أعضاء الكائن الحى ، فلا أستطيع أن أقول إن كائنا ما قد نما إلا إذا كانت تلك الخاصية – النمو – تشمل جميع أعضاء الكائن الخارجية ولجميع أجهزته الداخلية ، نموًّا جسمانيا ونفسيا وعصبيًّا وروحيا وعقليا ، وكل هؤلاء متكاملون ومتجانسون ومتناغمون .

وأسباب سقوط الدول أو الحضارات ، أنها اهتمت بجانب على حساب جانب آخر أو سبب إفلاس الحضارات هو ذلك ، لذلك لا يجب أن نبهر بالتقدم الفائق والمذهل فى جانب ، بينما بقية الجوانب معطلة أو مهملة .

كل هذا أدركه عمُر ... فإذا سألت . ما الشىء الذى كان يشغل اهتمام عمر ؟

أعيتكَ الإجابةُ ... لأن العُمرية تتسمُ بالشمول فى نظرتها للأمور وتفهم فهما حقا فلسفة النمو، ولنعد قائمة على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر تمثل اهتماماته وانظر كيف تتسم بالشمول والتغطية لجميع نواحى وإدارات ومرافق الدولة .

- الاهتمام بجمع القرآن .
- الاهتمام بوضع الدساتير ، دستور القضاء ، دستور الحرب ، دستور الولاة
- إنشاء دواوين القضاء والإحصاء والخراج – البريد وبيت المال ومرابط الثغور إنشاء مصنع السكة لضرب النقود .
- تنظيم البلاد المفتوحة .
- أسس بيت الدقيق لإغاثة الجياع .
- تخطيط بعض المدن مثل الكوفة والبصرة .
- وضع قانون لمحاسبة الولاة ، إذا أثروا نتيجة مناصبهم .
- النظر بنفسه فى شكاية أفراد الرعية والتفقد لحال أفراد الرعية ليلا ونهارًا .
- الترشيد الشديد فى نفقات الدولة وعدم إهدار الموارد فيما لا جدوى منه
- أسس نظام الاستخبارات ، بأن يرسل أفرادًا إلى الولايات والبلدان لنقل المعلومات والأخبار من مواقعها ومن أفواه الناس ، لتكون لديه وفرة للمعلومات لتعينه فى إصدار القرارات .

وكل بند من تلك البنود فى حاجة إلى تفصيل ، فمثلا ديوان الأعمال والجبايات يقول عنه ابن خلدون : "اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام بأعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة من الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقرير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى إبانتها والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها

قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى بالديوان"

والأهم من تلك الأعمال التى قام بها عمر وتعتبر من الأوليات ، الأهم من ذلك هو سيادة القانون سيادة مطلقة ، فلا أحد فوق القانون ، ولا أحد بعيدًا عن الحساب ، حتى الحاكم نفسه يطلب من الناس أن يحاسبوه ويذكروا عيوبه "قال عمر : وهو على المنبر أنشدكم الله ، لا يعلم رجل منى عيبًا إلا عابه فقال رجل : نعم يا أمير المؤمنين فيك عيبان قال : وما هما ؟ قال : تديل بين البردين (أى تلبس قميصًا وتخليه وتلبس غيره) ، وتجمع بين الأدمين ، ولا يسع ذاك الناس . قال : فما أدال بين بردين ، ولا جمع بين أدمين ، حتى لقى الله ﷺ" .

لا امتيازات ولا صلاحيات لفئة دون فئة ، وليس هناك استثناءات ولا واسطات والمصلحة العامة لكل المسلمين المواطنين فوق أى مصلحة أخرى

"وخُطب عمر ومكاتباته وتصرفاته وأفعاله تؤكد على اهتمامه بوضع دستور يحد من سلطة الحاكم ويوضح حقوق المحكومين على الحكام ، وفى كل آرائه بدون استثناء كان يستشير من حوله ، النساء والأطفال حتى الأعداء ، (وكلا الدستور والبرلمان) قيد يمسك السلطة أن تجور على الناس أو تتحيف حقوقهم المشروعة فى الحياة ، أو إن شئت فكلاهما يمسك الحاكم أن يستبد به الهوى ، فيؤذى الناس فى أرزاقهم وحرياتهم التى استقر عليها الاتفاق ، والدكتاتورية داء العصر ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف وجميع ما أصاب المسلمين من التأخر والانحطاط" (١)

---

١ - الفكر الإسلامى المعاصر – د/ حلمى مرزوق : (٨١) .

الاعتدال على الأمر والدوام والثبات :

هناك ظروف طارئة قد تدفع بالفرد أو الجماعة أو الأمة نحو اليمين أو نحو اليسار والتجارب التى خاضتها الأمم والحضارات على مدى التاريخ الإنسانى تؤكد أن كلا الأمرين لا يأتى بخير ولا نفع وإنما الخير كل الخير فى التوسط :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴾[1]

والتوسط أو الاعتدال بين الأمور ليس بالأمر اليسير، ولا هو بالأمر السهل فهو فى حاجة إلى قوة ومقاومة شديدة وصلبة كى لا تدفع الظروف الأمة أو الجماعة إلى تلك الجهة أو تلك الجهة .

وكل الأنسقة الفكرية مآلها إلى الزوال والفناء ؛ لأنها عجزت عن الاعتدال والتوسط وهذا هو السر فى أن الفكر الإسلامى هو أصلح فكر للإنسانية فى وقتها الحاضر وفى مستقبلها ، وليس هذا الرأى نابعا من تعصب أو تحيز ، ولكن المنطق العقلى والواقع الإنسانى الحاضر يحكمان بذلك ، فلا الفكر الشيوعى داوى أمراض الإنسانية ، وإنما زاد أمراضها استفحالا ، وجاء الوقت الذى نبذته الشعوب التى اتخذته عقيدة ، يلهجون بحمدها والثناء عليها والدفاع عنها ليل نهار ، والدعوة لها كل وقت وكل حين . ولا الفكر الرأسمالى نجح فيما فشلت فيه الشيوعية ، فها هى الشعوب التى تدين بهذا الفكر تصطلى بنيرانه ، والذى جعل صورة هذا الفكر تزداد بريقًا وتألقا فى عصرنا الحاضر أن الفئة التى تملك وتسيطر وتهيمن هى التى تدعو له وتسانده وتعضده لأنها الفئة الوحيدة المستفادة من هذا الوضع . أما بقية الفئات والشعوب والأمم التى تعانى من شدة وطأة هذا النظام

---

١ - سورة البقرة : من الآية ١٤٣ .

والفكر فلا تملك ولا تسيطر ولا تهيمن . لذلك فلا تملك سبل فضح هذا النظام والفكر ، حتى وإن ملكت تلك السبل ، فإنها مقضى عليها من جبابرة وطغاة الفكر الرأسمالى وعلى رأسهم أمريكا

كان عمر فى غاية الاعتدال ، اعتدال يصعب على أى إنسان أن يسير على نفس النهج ، فهو والى الفقراء واليتامى والأرامل والمساكين ، وكل تلك الفئات التى عضها الدهر بنابه ، ويجتهد أن تصل إليهم حقوقهم مستوفاة وكاملة ، وهو حرب على الأغنياء الذين اغتنوا من غير سبيل الحق ، وحرب على المحتكرين والمستغلين والمفسدين ، وهو فى نفس الوقت يحافظ أشد ما تكون المحافظة على ذاتية الفرد وحريته من سلطان الولاة أو سطوة الدولة ، وهو لا يرعى حقوق الأفراد المسلمين فحسب ، بل كل فرد فى الدولة الإسلامية مهما كان دينه أو جنسه أو لونه ، وقد قلنا فى كتابنا : "الفكر الإسلامى ومستجدات العصر" "والفرد فى الفكر الإسلامى ليست له مواصفات معينة كأن يكون عربيًّا أو أعجميًّا أو مسلما أو مسيحيا أو يهوديا ، أبيض أو أسود ، غنيا أو فقيرا ؛ الفرد فى الفكر الإسلامى هو الذات الآدمية التى تنتمى إلى جنس الإنسان ، وقد أحاطها الله بالتكريم والإعزاز

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴾(1)

والدليل على تكريم الإنسان تسخير كل ما فى السموات والأرض له ، وموقف الفكر الإسلامى وضحه عمر ﷺ أوضح تجلية حينما مرَّ بيهودى يتكفف الناس قال : (أكلنا شبيبته ونضيع شيخوخته ، اكتبوا هذا وأمثاله فى بيت المال) الدولة هنا إسلامية والحاكم مسلم ، والرجل يهودى طاعن فى السن ويعتبر عالة على المجتمع ، فهو يتكفف الناس ، فلا رجاء ولا نفع منه ومع ذلك يقول عمر : (اكتبوا هذا وأمثاله فى بيت المال)

١ - سورة الإسراء : من الآية ٧٠ .

وخرج من الحالة الفردية إلى مبدأ عام جعله قانونا ينتفع به اليهودى ، وكل من على شاكلته ، وذلك لأن عمر ينطلق من جوهر الفلسفة الإسلامية ومن منظور الفكر الإسلامى ومفهومه للفرد ذلك المفهوم الإنسانى العام الذى قلّ أن نجد له نظيرًا فى أى فكر آخر" [1]

توفية الحقوق :

ليس هناك فى عرف عمر بدائل أو اختيارات عن تأدية الحقوق ، وليس هناك فى عرف عمر أن يُؤدى الحق على صورة من الصور ، فهو لا يكتفى بتأدية الحق بل يصل إلى أقصى صورة مستطاعة ، ويستفرغ الجهد الإنسانى فى ذلك ، سواء أكان هذا الجهد متعلقًا بذات الله ﷻ أم بالبشر .

تقويم المعوج :

لا يستطيع الحاكم أن يقوم أى معوج فى أمور دولته ، إن لم يقوم اعوجاج نفسه والذى سيقوم بذلك هم المحكومون ... الناس ... الرعية ، وأن يعطى لهم الحاكم أمانًا ، أن يصارحوه بأى اعوجاج يطرأ عليه ، ويطلب منهم تقويم اعوجاجه إن حدث اعوجاج . لا أظن أن هناك صورة أعظم من تلك الصورة التى تعبر عن قمة الحرية والعدل والديمقراطية "أيها الناس من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومه"

فيرد أحد الجالسين من عامة الناس : "والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا" .

ولا يطلب الحاكم ذلك إلا إذا كان يجتهد ما وسعه الجهد ألا يعطى فرصة لأى اعوجاج يطرأ عليه .

---

١ - الفكر الإسلامى ومستجدات العصر – محمود القلينى : (١٣٢ – ١٣٣) .

ولا يقول فرد من الناس ذلك إلا وهو يعلم أن حاكمه لا يمقت شيئا قدر مقته الاعوجاج حتى بشخصه .

حساب الزمن بالسنة والشهر والأيام :

هل من قبيل الصدفة أن يكون عمر أولَ من أرَّخ ، ووضع تاريخا للدولة ؟ فليس من المنطقى أن يكون هناك عقيدة جديدة ودولة ناشئة وأمة ناهضة وليس لها نظام وتاريخ على أساسه تنظم أمور عبادتها وكل أمور معاملتها "رفع إلى عمر صك مَحَلَّةٍ فى شعبان فقال عمر : أى شعبان هو ! الذى مضى ، أو الذى هو آت أو الذى نحن فيه ؟ ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : ضعوا للناس شيئا يعرفونه .

فقال قائل : اكتبوا على تاريخ الروم . فقيل له : إنه يطول فإنهم يكتبون منَ عهد ذى القرنين وقال قائل : اكتبوا تاريخ الفرس كلما قام ملك طرح ما كان قبله فاجتمع رأيهم على أن ينظرواكمْ أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه قد أقام بها عشر سنين فكتب أول التاريخ على هجرة رسول الله ﷺ "

قد كان هناك مناسبات كثيرة تصلح أن تكون بداية للتاريخ الهجرى مثل غزوة بدر بداية الصدام المسلح بين المسلمين والمشركين أو فتح مكة ، أو ميلاد الرسول ﷺ أو وفاته كلها مناسبات تستحق أن تكون بداية ، ولكن الأصلح والأكثر مناسبة هو يوم هاجر الرسول من مكة إلى المدينة ، لم تكن مجرد رحلة فى المكان أو فى الزمان ، ولكن كانت رحلة من الجمود والثبات والضيق واليأس إلى الحركة والانطلاق والفتح والأمل ، احتضن الإسلام المدينة واحتضنته المدينة ، وانساح الإسلام بَعد ذلك ليضئ العالم من هذه البقعة الصغيرة ، ودرس تعلمته الإنسانية من سيدها ومعلمها ومربيها محمد رسول الله ... الصبر والتحمل والإيمان ومواجهة الشدائد والمحن بنفس تثق فى قدرتها وتثق فى عون ومدد الله

موقف وقفه الرسول ، وكلمة قالها اختزلت كل الدروس التى يمكن أن تتعلمها الشعوب والأمم فى أشد المواقف عسرًا وشدة : "كلمة قالها رسول الله ﷺ بعد أن انهار العالم من حوله وتزلزل ، وغلقت قوى الشر أمامه كل سبيل ، واجتثت بذور الأمل من الأرض بل توحدت كل تلك القوى وتكتلت وتكاتفت وتساندت لقتله وطاردته فى كل حدب وصوب ووجد هذا الإنسان الأعظم نفسه فى كهف ضيق ومظلم وأقدام الشر والفساد تجوس من فوقه مدججة بكل أسلحة الغضب والحقد والكراهية والتدمير

أكان رسول الله ﷺ قريبًا من اليأس والعجز ؟

أكان قريبًا من الخوف والحزن ؟

أكان قريبا من الغضب والكراهية ؟

كلمة قالها قصمت ظهر الباطل وحسمت كل المعارك التى حدثت وتحدث وستحدث بين الحق والباطل ﴿... لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ...﴾[1]

كم ستقف الإنسانية طويلا طويلا أمام هذا الغار لتتعلم ممن داخله ، لحظات فى خضم الزمان ، ولكنها علت على كل الزمن ، صحراء قاحلة وسط عالم قفر فى جوف جبل فى جوف غار ، ولكنه أضاء ظلمات العالمين" [2]

نعم الهجرة كانت خطوطًا فارقة وسئمت علامات فاصلة بين عهدين ، بين مرحلتين بين نهاية عالم زهدته الإنسانية وسأمت منه وكرهته ، بكل ما يحمل فى جوفه من ظلم وفساد وباطل وكفر ودمار ، وبداية عالم حنت إليه الإنسانية حنينًا فياضًا ، إلى عالم يبشر بالحق والنور والعدل والمحبة والإيمان والحياة التى لا ينحنى فيها الإنسان إلا لخالقه الواحد الأحد .

١ - سورة التوبة : من الآية ٤٠ .
٢ - عش حياتك سعيدًا ولا تحزن – محمود القلينى : (٩١ – ٩) .

لذلك كان عمر موفقًا توفيقًا عجيبًا ونادرًا يوم اختار مناسبة الهجرة بداية لتاريخ الدولة أو لتاريخ العقيدة : "فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءًا لتاريخ الإسلام ، قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه .

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقًّا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتتحمل من حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتاريخ إذا من يوم هجر فيه النبى بلده

﴿ ... إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]

ليقل من قال إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتًا معروفًا على عهد النبى ﷺ .

وليقل من قال إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة وهو يوم عظيم .

ليقل من قال هذا أو ذاك فإن تاريخ النصر فى القرآن ظاهر "إذ هو ثانى اثنين فى الغار" .

وأن ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد – سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح حين نظر إلى غار (ثور) ولم ينظر فى التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر أحد ولا إلى نصر فارس ونظر إلى تلك "الجنود التى لم تروها" وقد نراها نحن الآن يوم الدعوة لم يكن يوم

---

١ - سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

الإسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير .

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدًا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة حيث تنجو وحيث تسود وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى الغار كذلك تؤرخ العقائد والأديان بالشدة تاريخها وليس بالغنائم والفتوح ، وإنها لشىء فى القلوب فلنعرفها إذن حين لا تكون إلا فى القلوب ، وحين يكون كل شىء ظاهرًا كأنه ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم" (١)

العـــدل :

فقد قلنا فيما سبق أنه من وضوح تلك الصفة أصبح عمر معيارًا للعدل ، أو هو الميزان الذى يوزن به صور العدل ، أو الميزان (الأم) الذى تضبط عليه بقية موازين العدل فهو لا يأمر بالعدل ولا ينشره فحسب ، بل يقوم على إصلاح وضبط معايير ومقاييس العدل وأعظم من هذا أن يدوم هذا الأمر ، فلا نفع فى عادل اليوم وظالم غدًا ، ولا جدوى من رجل يتحرى العدل اليوم ويقوم عليه اليوم لأن الظروف مواتية ويغض نظره عن جور وظلم غدا لأن الظروف لا تسمح بذلك . فعظمة وقوة عمر أن يظل ثابتا على هذا الأمر لا يتغير مهما تغيرت الظروف حوله ، فقد ظل عمر ثابتًا على ما عُرف عنه واشتهر به حتى آخر نفس من أنفاسه : "كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه ، وربما كان تعدد

---

١ - عبقرية محمد – عباس العقاد : (١٨٠) .

الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها ، لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع ، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها ، فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير" [1]

عماد ونظام الشىء :

الأقوال التى قيلت بعد موت عمر – وكلها أقوال خالية من أى شبهة من شبهات المجاملة أو المداهنة – توضح أن عمر كان عماد أمر الأمة أو الدولة أو الإسلام . "إن سعيد بن زيد بكى ، فقيل ما يبكيك ؟ فقال : على الإسلام أبكى إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة" .

"عن زيد بن وهب . قال : أتينا ابن مسعود فذكر عمر فبكى حتى ابتل الحصى من دموعه وقال : إن عمر كان حصنًا للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه ، فلما مات انثلم الحصن فالناس يخرجون من الإسلام" .

"عن الأعمش عن إبراهيم ، قال : قال عبد الله : إنى لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم" .

"قال حذيفة : إنما كان مثل الإسلام أيام عمر ، مثل أمر مقبل لم يزل فى إقبال فلما أدبر فلم يزل فى إدبار" .

"عن أنس بن مالك . قال . قال أبو طلحة : والله ما من أهل بيت من المسلمين إلا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم" .

---

١ - عبقرية عمر – عباس العقاد (٣٤) .

" عن واصل عن الأحدب عن مجاهد قال : كنا نتحدث أن الشياطين مصفدة فى زمن عمر فلما قتل بثت فى الأرض" .

كلها أقوال قيلت بعد استشهاد عمر ، مما يدل على أنها لا مجاملة تحركها ولا خوف يبعثها ، وإنما هى خالصة للتاريخ ولوجه الله ، وكل الأقوال والشهادات أثبت التاريخ صدقها ، وأكدت الوقائع التى تلت ذلك مدى صواب وسداد حكمها وكأن تلك الأقوال ضرب من التنبؤ ، أو أن عمر نهض بأمر الحكم والخلافة نهوضا تجاوز كل توقعات من حوله وأدهشهم وأذهلهم بأعماله ومواقفه وفكره ورأيه بحيث إنهم استبعدوا أن يكون هناك نظير أو مثيل لعمر يأتى بعده ، بحيث إن الأمور سائرة إلى ما لا يحبون ولا يتمنون ، وقول عثمان بن عفان ﷺ "لن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر" خير شاهد على هذا حتى رأى خالد بن الوليد بعد أن وصل له قرار عزله ، وفى صدره أشياء من عمر خطب قائلا : "إن عمر بعثنى إلى الشام وهو لهم مهم ، فلما ألقى الشام بوانيه ، وصار سمنا وعسلا أراد أن يؤثر بها غيرى ويبعثنى إلى الهند فقال رجل إلى جانبه : اصبر اصبر أيها الأمير فإن الفتن قد ظهرت فقال خالد : وابن الخطاب حى ! إنما ذلك بعده"

لا فتن ،لا اضطرابات ، لا خلافات ، لا منازعات ، وابن الخطاب حى لأنه عماد الأمر ونظام الحكم .

وقول السيدة عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – خير شاهد على هذا "قالت : من رأى ابن الخطاب ، علم أنه خُلق غنى للإسلام كان والله أحوذيا نسيج وحده ، قد أعد للأمور أقرانها" .

ولاية الأمر:

ما معنى أن تتولى أمر قوم ؟

يا ليت كثيرًا من الحكام فى العصر الحديث يفهمون الأمر كما فهمه عمر ويدركونه كما أدركه عمر . فقد فهم أنه نائب عن الله . فقد استخلف على هذا الأمر بفضل ومنة من الله . وإن كونه خليفة للمسلمين لن يخرج عن قضاء وأمر ومشيئة الله إذن هو يحكم ويتولى الأمر بمراد الله . ومراد الله هو الحق والخير والعدل . وأن الحساب الأكبر بعد حسابه لنفسه وحساب المسلمين له هو حساب الله .

إذن فليعد كل سجلاته وأوراقه ورصيده من الأعمال لكى يعرضها على الله ومن هنا جاءت قوته . وإنه لا يخشى فى الله لومة لائم . وكيف لإنسان يخشى أحدًا وهو يعلم علم اليقين أن لا محاسب له غير الله . وأن المقرر نتيجة هذا الحساب هو الله وتلك هى البوصلة التى وجهت عمر طوال حياته . أو ذلك هو العاصم الذى عصم عمر أن يضل أو يزيغ

مما سبق يتضح لنا وبجلاء – أن عمر رجل قوى . بكل معانى وصور القوة التى سبق ذكرها . ورب سائل يسأل : فى أى جانب يكون الرجل القوى فى جانب الحق أم الباطل؟

ليس فى الباطل قوة . والقوة لا تكون مع الباطل .

فهما نقيضان لا يجتمعان .

فإذا كان هناك قوة . فليس هناك وجود للباطل . لأن القوة صورة من صور الحق. ولم نجعل القوة صورة من صور الحق ؟ ولم لا نقول إن الحق هو القوة . بل هو كل القوة ؟

وإذا وجد باطل وعاش زمنا ما فى مكان ما . واستشرى . فليس هذا بسبب قوته وإنما لأن هناك تفريطًا من أصحاب الحق . هناك أزمة ثقة بين الحق وأصحابه . لم يرتفعوا إلى مستوى الحق . لم يستمدوا من الحق القوة والصمود .ما يمكنهم من مواجهة ومجابهة ومحاربة الباطل . لأن هناك ضعفًا فى إيمانهم بهذا الحق . وبذلك تضعف

علاقتهم بالحق ، ويبتعدون عن الحق ، أو يبتعد الحق عنهم وبمرور الوقت تزداد المسافة بين الاثنين ، ويصل إلى أن يضيع الحق من أصحابه أو يضيع أصحاب الحق عنه .

وهنا يكون الباطل ، ومن الخطأ أن نقول إن الباطل قوى ، وإنما يتخذ الباطل أساليب الاستبداد والبطش والظلم والقهر والطغيان والقمع والتحكم ليحمى نفسه ويدعم وجوده ، ويؤصل دعواه ، ومن عجيب الأمر أن تلك الأساليب هى أول أسباب انهياره وفنائه والقضاء عليه .

من أجل هذا ، فإن الباطل مهما اتخذ تلك الصور والأساليب ، وغافل وخادع واستمر ، فإن هذا الاستمرار يسرع به نحو نهايته وهو قانون وضعه الله تسير عليه سنن الكون : (إن الباطل كان زهوقا) .

وعلى هذا ، فرجل قوى معناه أنه على الحق ، وهذا التماسك والعزة والنصرة لم يستمدها الرجل القوى إلا من الحق ، وقد يصادف وتكون هناك غفلة أو عماية أو غمامة على عين هذا القوى ، ولكن لن يطول به هذا الأمر فبعد قليل ستنقذه قوته وسترشده وستهديه ، وقد أدرك الرسول ﷺ بحسه النبوى ذلك ، وأيقن أن هذا الرجل القوى أمره صائر إلى الإسلام لا محالة ، وأن تلك القوة سيعتز بها الإسلام ، وأن هذا القوى سيعز بالإسلام متخطيًا حدود المكان ، ومتجاوزًا أبعاد الزمان .

الفصل السابع :

حتمية الشهادة



حتمية الشهادة

ليس من نهاية تتوافق وعظمة تلك الحياة ، وجليل صاحبها سوى الشهادة فهى حتم محتوم ، ولقد استهدفتْ الشهادةُ عمرَ قبل أن يستهدفها ، وقد سعتْ إليه قبل أن يسعى إليها .

والشهادة طريق له بداية وله نهاية ، قد تدفع ظروف خارجة عن إرادة الإنسان إلى هذا الطريق ليسير فيه ويصل إلى نهايته ، وقد يكون على علم بتلك النهاية ، وقد يجهل تلك النهاية .

وأعظم الشهداء – والشهادة درجات – من يختار السير فى هذا الطريق بملء إرادته يدفعه إلى ذلك شرفُ طبعه ، ونبلُ خلقه ، الذى لا يقبل المساومة على قيم ومبادئ أزلية ولا يقبل مهادنة الباطل أو خذلان الحق .

والشهيدُ يفوزُ فوزًا عظيمًا ، ويحقق مكسبًا لا يطاوله مكسب فى مجال الأخلاق الرفيعة ، وفى سجل التاريخ الإنسانى ، والذى يفخر ويتيه بنو الإنسان به

والشهادة دليل وبرهان وإيمان :

- دليل على أن للإنسان الفرد قيمة سامية فى هذا الكون ، فلا نظن أن هناك كائنا آخر فى الكون يقدم على ما يقدم عليه الإنسان من التضحية مختارًا بحياته عن اقتناع ورضى .
- برهان على أن البشر درجات وأنواع ، وكما ينحط الإنسان إلى أدنى الدرجات ويتجاوز فى الانحطاط كل تصور وجميع الحدود ، يستطيع أن يسمو ويرتقى إلى أعلى الدرجات ، ضاربًا أسمى آيات الإيثار والتضحية

- إيمان بأن الله موجود ، وأن هناك حياة أخرى ، فلولا هذان الأمران ما رخصت الحياة فى عين الشهيد ، وما زهد فى الدنيا . والإنسان لا يصل إلى درجة عين اليقين إلا إذا كان ما يستمد منه هذا الإيمان الوثيق على درجة عليا من الحياة وعلى أعلى درجة من الوجود .

حكمة الشهادة :

الحياة الدنيا لها بريقها ولها إغراءاتها ، وهى حافلة بالشهوات والرغبات وأغلب رغباتها وشهواتها دنيئة ، وليس هذا حكما خلقيا بقدر ما هو حكم واقعى ووصفى ، لأن النبع دنيء، فكل ما يخرج منه مكتسب منه

﴿ ...وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1]

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... ﴾[2]

والنفس الإنسانية مركوز فى طبيعتها ما يزيد هذا البريق سطوعًا ويؤجج من سعار تلك الإغراءات ، ويشعل أوار تلك الشهوات . لأن بها رغبات دنيئة مثل الطمع والأثرة والحقد والغيرة والاستبداد والبطش . فهناك تشابه بين هذا الجانب من النفس الإنسانية وبين الحياة الدنيا ، وتجد النفس مبتغاها ومرامها فيها ، لذلك ينشأ عشق النفس للحياة الدنيا ، وينتج عن العشق نوع من التوحد بين النفس والحياة ، أو تصبح الحياة الدنيا هى دين النفس وعقيدتها تستمد قيمها ومبادئها منها ، وتعلو بالدنيا ، وتعتبرها هى المبدأ وهى المنتهى ، فلا غاية من وراء تلك الدنيا إلا إرضاء رغبات الجسد ، ورى ظمأ النفس الذى لا ينتهى ، ومن كان هذا مطمحه فهو لا يعبأ أى السبل يسلك ، ولا بأى الوسائل يستعين

١- سورة آل عمران : من الآية ١٨٥ .
٢- سورة الانعـــام : من الآية ٣٢ .

مضحيا بكل شىء ، فما القتل والسرقة والكذب والتزوير والخداع إلا وسائل مباحة تكتسب الشرعية فى عرفه كلما أصابت نجحًا ، وحققت الغاية والهدف !!

ويبدأ ضعاف النفوس ، ومرضى القلوب ينجذبون إلى تلك الوسائل والسبل ويتجمعون فيما بينهم ، تجمعهم وحدة الهدف والوسيلة ، وتزداد سطوة وجبروت تلك الجماعة بمرور الزمن ، ويتسع نطاقها ويمتد وجودها ، وتبدأ بتأصيل هذا الوجود، لأنها تعلم أن كل ما تبنيه على شفا جرف هار ، فتهب لتشرع لنفسها فلسفة تبريرية ، تبرر لها كل أفعالها ، وتسوغ لها كل أفكارها ، وتلك الفلسفة تعتمد فى أساسها على الخداع والتزوير والتلفيق والمغالطة وتتملق رغبات النفس ، وترضى غرائزها الوقتية ، وتعضد اتجاهاتها المادية ، ويصبح العالم الذى تعيش فيه وتدعو الآخرين فى الانضواء تحت لوائه ، كافرًا بكل شىء إلا بالمادة ولا يستجيب ولا يلبى إلا نداء اللحم والدم .

وتلك الفئة الضالة لا يقتصر خطرها على ذاتها فحسب ، وإنما هى حرب على من يعارضها أو يخالفها لأنها تريد أن تصبغ العالم والكون بصبغتها ، فلا صوت إلا صوتها ، ولا رأى إلا رأيها وتمتلىء أوداجها بالغرور والكبر ، وتتسم تصرفاتها بالصلف والنزق .

ومن أجل ذلك تتراكم غيوم كثيفة من الضلال والباطل فى سماء العالم ويشيع الظلم والاستبداد والقهر ، ويتحول العالم إلى غابة لا يلمع فى جنباتها إلا الظفر والناب ، ولا يسمع فى أجوائها إلا صرخات القتلى وأنين الضحايا ، ولا يرى فى أرضها سوى الأشلاء والدماء ، ولا يشق صمتها غير عواء الطغاة والجبابرة وينتشر بين الناس الشح والحرص والأثرة والتكالب والتباغض والخداع والمكر .. هنا لا وجود للخير أو العدل أو الحق .. إن هى إلا أسماء تلهج بها ألسنة المقهورين والمعذبين والبؤساء ، وقد تتعرض للقطع والبتر نتيجة ذلك .

هنا تتدخل السماء ، وترسل الأنبياء والرسل لإرجاع العالم إلى صوابه ورد البشر إلى رشدهم ، وتبصير الناس بالحقيقة الضائعة ، وإرشادهم إلى مكان الخير والحق فى النفس الإنسانية ، ومواطن العدل والأمن فى الكون . وكشف ما ران على القلوب من طبقات الظلام والضلال والغفلة .

ولكن شياطين الباطل ، وأبالسة الضلال لن يقفوا مكتوفى الأيدى ، فعلى الفور يتجمعون ليطفئوا هذا النور ، ويكتموا أنفاس الحق ، ويحطموا هيكل العدل إنها حرب مستعرة ، ولابد أن يكون فى الجبهة المقابلة جند للحق ومحاربون لنصرة العدل ، ومدافعون عن الخير .. وهم الشهداء .

نذروا أنفسهم قربانا لتحقيق هدف سام ، وهم يعلمون أن تحقيق هذا الهدف فى حاجة إلى بحار وأنهار من الدماء الطاهرة الزكية ، وما هم إلا قطرة أو قطرات فقد يتحقق هذا الهدف وهم على قيد الحياة وقد لا يتحقق فى حياتهم ، حتى هذا لا يفكرون فيه ، لقد وضح السبيل أمامهم ، سبيل الله ، وهم سائرون فيه وليس لهم من مقصد سواه .

والمقصد والغاية والهدف تحدد نوعية الحياة التى يحياها الإنسان ، وكذلك تفكيره ومشاعره . فهم بمثابة البوصلة التى تشير إلى النهج والطريق الذى يجب عليه أن يسلكه .

وقد يحدد نوعية الحياة التى يحياها الإنسان المقصد والهدف والغاية (وعمر) من هذا الصنف ... نوعية وطريقة الحياة التى اختارها وارتضاها هى التى حددت الهدف والمقصد والغاية ... هو لم يكن يفكر فى الشهادة ولم يكن يتوقعها وإن كان يسألها ويتمناها

"عن زيد بن أسلم عن أمه عن حفصة قالت : سمعتُ عمر يقول : اللهم قتلاً فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيك . قلت وأنى يكون هذا ! قال يأتى الله به إذا يشاء اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك"

أمنية تمناها عمر، دفعه إليها قوة إيمانه، وعلو همته، ومضاء عزيمته، وإن كان لا يتوقعها أو تدور بخلده "عن أبى صالح قال: قال كعب لعمر: أجدك فى التوراة كذا وكذا وأجدك تقتل شهيدًا. فقال عمر، وأنى لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب"

وإذا كان الإنسان لا يكتسب صفة الشهادة إلا بعد مقتله، وهى مدة وجيزة تفصل بين كون الإنسان ليس شهيدًا وبين كونه شهيدا إلا أن عمر منذ اللحظة الأولى لإسلامه اختار وبملء إرادته أن يقف فى صفوف الشهداء، ويسلك سلوكهم ويفعل أفعالهم ويفكر تفكيرهم.

أو لنقل إن عمر قد اختط لنفسه طريقًا أو سبيلا جديدًا للشهادة - وكل ما يتعلق بعمر جديد لم يسبقه أحد إليه - لم ينتظر الباطل حتى يقتحم عليه عالمه أو يتريث حتى يحدد مكانًا أو ميدانًا لمحاربة الباطل، أو يتمهل حتى يحين الوقت المناسب للمجابهة أو يتحين الفرصة كى يأخذ خصمه على حين غرة كل هذا لم يفكر فيه عمر، أو يحسب له حسابًا، وإذا كانت الشهادة بمثابة خضم واسع متلاطم الأمواج حافل بالأنواء والعواصف فإن عمر ألقى بنفسه فى هذا الخضم بدون إعداد العدة أو حساب للتيارات أو الأنواء، فهو لا يخشى البحر أو الخضم لأنه أيضًا بحر وخضم، لا يخشى أن يحتويه البحر، لأن لديه من القدرة والقوة والشجاعة والجرأة أن يحتوى البحر بكل ما يشتمل عليه من أخطار وأهوال وخطوب.

أراد أن يعلم العالم كله إسلامه، وانتقاله من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، لأنه أدرك أن الحرب بين الاثنين أدخل فى الجهاد النفسى والعصبى منها فى جهاد السلاح والقوة، فهذا الإعلام المدوى سيزلزل المعسكر الأول، وكانت الأمور فى حاجة إلى هذا

الزلزال لتضعضع من تماسكه وصلابته ، وتقوى المعسكر الثانى وهو أشد ما يكون آنذاك حاجة إلى من يلملم شتاته ويقوى بنيانه ولو على صعيد الدعاية والإعلام .

قنبلة فجرها عمر ، وهو لا يدرى إلى أى مدى ستصل شظاياها وقد ترتد عليه لتقتله فلتقتله فهو لا يعبأ بذلك . بالأمس كان أشد ما يكون إيذاءً للمسلمين تحديا ومواجهة ، بل وصل الأمر به - كما يروى - أنه قصد صاحب الدعوة الجديدة ليقتله ليريح العرب من الدعوة الجديدة ومن صاحبها ، وكان من الممكن أن يقتل وهو منفرد ، هو لا يعبأ بذلك أمامه هدف وها هو يسعى لتنفيذه ، ولا عليه إن نفذه أم لم ينفذه ، فلا حائل يحول بينه وبين التنفيذ سوى الموت ... فليمت

واليوم أشد ما يكون إيمانًا وتصديقًا للدعوة ، وحبًّا لصاحبها فليبدأ بمواجهة هذا الحشد وهذا الجبروت والطغيان منفردًا وقد يقتل ، هو لا يعبأ بذلك ، أمامه هدف ، وها هو يسعى لتنفيذه .

سأل أى أهل مكة أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحى فقصده وأخبره أنه قد أسلم ، وعلى ما يبدو أن الرجل كان بمثابة وكالة أنباء متنقلة ، فما هى إلا لحظات حتى عرفت جميع أندية قريش بأمر إسلام عمر ، ولم يتوار أو يخف ، (جميل) يقول : يا معشر قريش إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، وعمر يقول من خلفه : كذب ولكنى أسلمت ويبدأ الصراع بين رجل ومجموعة من الرجال الأشداء ، يجالدهم ويجلدونه. احتمال الشهادة هنا وارد .

ثم بعد ذلك يسأل رسول الله ﷺ سؤاله العمرى ، حينما رأى المسلمين لا يجهرون بصلاتهم ويعلنونها متحدين ومجابهين "ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟"

وخرج عمر ومعه سيدنا (حمزة) مع رسول الله ﷺ ونفر من الصحابة قاصدين الكعبة على ملأ من الكفار والمشركين . احتمال الشهادة هنا وارد

وحينما تولى الخلافة ، كل يوم يأتى ونأتى معه احتمالات الشهادة ، وهو سائر فى الأسواق والطرق متفقدًا الرعية وأمور حياتهم اليومية ليلا ونهارًا بدون حراسة أو حماية وجيوشه فى الغرب والشرق تحطم وتكسر جيوش الأعداء وأسرى تلك الأمم يفدون على جزيرة العرب وإلى مكة والمدينة يملأ قلوبهم الغيظ والغضب والحقد .

ومنهجه فى الحكم ، وشدته وحسمه وحزمه ، وعدم مراعاة منزلة لأى شخصية من الشخصيات فى الدولة إذا تعارضت مع المصلحة العامة أو الحق ... والتى أغضبت الكثيرين منه ، لأنها حالت بينهم وبين ما يريدونه ، وكان عمر يعلم مبلغ ضيق البعض من هذا النهج فى الحكم إلى الدرجة التى ظن أن قتله قد يكون صادف هوى البعض "فعندما طعن اجتمع إليه البدريون والمهاجرون والأنصار فقال لابن عباس : اخرج عليهم فسلهم عن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فخرج ابن عباس فسألهم ، فقال القوم : لا والله ولوددنا أن الله زاد فى عمرك من أعمارنا" .

وإذا كان الشهيد – الشهيد بالقوة – يبحث عن ميادين القتال ، ويسعى إليها أينما كانت ، فإن عمر كان بمثابة ميدان معركة متحرك ، حياته كلها منذ أن أسلم إلى أن قتل صراع وجهاد مع الأحياء والحياة ، حتى مع نفسه ، وربما تكون أشد المعارك ضراوة هى التى كانت مع نفسه ، كما ذكرنا فى بعض الفصول من قبل

"فهو مستشهد لا محالة ، ولو مات على سريره ، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه" (١)

أمران لا ثالث لهما . بل هو أمر واحد أمام عمر (الشهادة)

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، ولكن تلك المعرفة لا تدفعهم إلى الشهادة ولا لوم عليهم فى ذلك .

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، ولكن تلك المعرفة لا تجعل الموت والحياة عندهم سواء ، ولا لوم عليهم فى ذلك .

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، فيتوحدون به ويسعون سعيا إلى الشهادة وتصبح مبلغ آمالهم ، ونهاية مرامهم وهؤلاء هم الشهداء حقا .

وقد كان عمر متوحدًا مع الحق ، سائرًا مع الحق يوجه كيفما يشاء ، وهل هناك أشرف وأسمى من الشهادة لتكون وجهة الحق ؟

"عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"

"عن ابن عباس عن أخيه الفضل . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عمر بن الخطاب معى حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، الحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان"

"عن على بن أبى طالب ﷺ ، قال : قال : رسول الله ﷺ : اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب إذا غضب عمر"

الحق على لسانه وقلبه .

١- عبقرية الإمام – عباس العقاد : (٢٠٥) .

الحق معه حيث كان .

الله يغضب إذا غضب عمر .

هل هناك توحد مع الحق أكثر من ذلك ، والشاهد على ذلك رسول الله ﷺ وقد أدرك رسول الله ﷺ أن من تكون تلك سيرته وهذا نهجه ، ليس له من خاتمة يختتم بها حياته سوى الشهادة .

فعمر شديد فى أمر الله "أشد أمتى فى أمر الله عمر" وعمر متوحد مع الحق وعمر لا يقبل المهادنة أو المراوغة أو المساومة أو أنصاف الحلول .

وهناك كارهون للحق ، مبغضون للشدة فى أمر الله ، ناقمون على الصراحة زاهدون فى الاستقامة ، يبغونها عوجا ، يريدونها باطلا ، وإن هؤلاء كثر :

﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ [1]

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ [2]

وأن هؤلاء على كثرتهم وعلى طغيانهم وفسادهم ، لن يستطيعوا أن يقضوا على الحق لأن الحق لا يقضى عليه ، وإنما هو الذى يقضى على الباطل :

﴿ ...وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3]

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [4]

﴿...وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [5]

١- سورة المؤمنون : من الآية ٧٠ .
٢- سورة الزخرف : من الآية ٧٨ .
٣- سورة الأنفال : من الآية ٧ .
٤- سورة الأنفال : من الآية ٨ .
٥- سورة الشورى : من الآية ٢٤ .

والحق أساس من الأسس التى بنى عليها الكون ، قبل أن يكون أمنية تختلج بها الصدور ، أو غاية تطمح إليها النفوس

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (1)

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (3)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (4)

إذن لا أحد يستطيع القضاء على الحق ، إلا إذا كان فى استطاعته القضاء على السموات والأرض ، أو تبديلهم خلقا آخر .

وإذا كان القضاء على الحق محالا ، فليس أقل من أن يقضى على من يمثل الحق على من يجسد الحق ، على من يأمر بالحق ويقيمه ، على من لا يتنفس النفس إلا ليدافع عن الحق أينما وجده ويحارب الباطل أينما كان ، بل كان يتتبع الباطل ويبحث عنه فى مظانه ليواجهه ، ويقاتله حتى إن الشيطان ليفرق من عمر .

الحق والشهادة صنوان

ولم لا نقول ان الشهادة حق والحق شهادة؟!

١- سورة الأنعام : من الآية ٧٣ .
٢- سورة العنكبوت : الآية ٤٤ .
٣- سورة الحجر : من الآية ٨٥ .
٤- سورة النحل : الآية ٣ .

والشهادة متغلغلة فى حياة الناس اليومية ، قريبة من أطراف أصابعهم إن شاءوا مدوا أيديهم لينالوا منها كل حسب مقدرته "عن أبى وائل أن عمر قال : ما يمنعكم إذا رأيتم السفيه يخرق أعراض الناس أن تعربوا عليه ؟

قالوا : نخاف لسانه .

قال : "ذلك أدنى أن لا تكونوا شهداء"

شجاعة وتوحد مع الحق .

قوة فى المواجهة .

صدق فى النية .

شرف ونبل فى الطبع .

الخاتمة : شهادة .

وكأنى برسول الله ﷺ وقد سبرغور شخصية عمر – أراد أن يلمح لصاحبه بتلك الخاتمة والتى أدركها بحسه النبوى الصادق خاتمة شريفة ، لحياة شريفة لشخصية شريفة ، وقفت الإنسانية وتقف وستقف أمام هذا الإنسان خافضة الجبين ، خاشعة الجنان ، كيف لإنسان يرتقى كل يوم فى سجل حياته فى مدارج الكمال الإنسانى ويتجاوز تلك الغاية ، واضعا للإنسانية غايات وأهدافا تعجز الإنسانية – فى وقتها الحاضر عن الوصول إليها ، أو حتى الاقتراب منها ، ويكون آخر يوم له فى سجل الأحياء بداية أعظم وأحق فى سجل الخالدين إلى أبد الدهر

"عن الزهرى عن سالم عن أبيه . قال : رأى النبى ﷺ على عمر ثوبا أبيض فقال أجديد ثوبك هذا أم غسيل قال : بل غسيل . قال : البس جديدًا وعش حميدًا ومت شهيدًا يعطك الله قرة عين فى الدنيا والآخرة" .

الفصل الثامن :

العمرية سلوك إيماني



العُمرية سلوك إيمانى

كل الناس يعرفون أنهم سيموتون . ثم يبعثون . فيقفون بين يدى الله يحاسبهم على كل كبيرة وصغيرة ، تلك المعرفة يقينية ، لا يتطرق إليها أدنى ذرة من الشك ، ومع ذلك فهناك حاجز بين تلك المعرفة وتأثيرها فى حياتهم ، فسلوكهم فى الحياة وأفعالهم وتصرفاتهم لا تنبئ عن تلك المعرفة ، ومن يتأمل أفعالهم لا يجزم أن وراء تلك الأفعال رصيد من تلك المعرفة اليقينية .

بم نسمى تلك الحالة ؟

أو بم نشخصها ؟

هل لأن الحياة – كما يقولون – أخذتهم فى دوامتها الهائلة ، فأصابتهم بالدوار وأفقدتهم اتزانهم وسداد رأيهم وصائب أحكامهم ؟

أم أن للحياة الدنيا سيطرة وهيمنة وإغراء تجعلهم لا يقدرون على مقاومتها ؟

أم أنهم أضعف من أن يقفوا أمام هذا التيار العاتى متزنين ليعطوا كل شىء حجمه الحقيقى ، ويضعوا كل شىء فى مكانه الصحيح ؟

ربما يكون كل ما سبق يشخص الحالة .

وربما يكون السبب فى ذلك أن تلك المعرفة اليقينية لم تتحول إلى إيمان! شتان بين المعرفة والإيمان .

المعرفة لا يلزم أن تترجم إلى فعل ، لأن نطاقها العقل تبدأ منه وتنتهى إليه فهى مجرد عملية إدراكية ، أو إدراك بواسطة حاسة من الحواس وقد لا يترتب عليها إيمان ، بل قد ينتج عن المعرفة كفر وجحود وإنكار .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (2)

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (3)

المعرفة هنا لم تترق فى طريقها الطبيعى وتتحول إلى علم ، لأن الشيء المنطقى أنى أدرك الشيء بحاسة من الحواس ، ثم بعد ذلك أدرك حقيقة الشيء وهذا هو العلم ، فالعلم هو الطريق إلى الحقيقة ، وكثيرون لا يصلون إليها فى تلك الحياة .

﴿ ...وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4)

﴿ ...فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (5)

ومن قدر له أن يصل إلى الحقيقة عن طريق العلم فبعون من الله وتوفيقه

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (6)

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (7)

﴿ ...قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (8)

ويترقى العلم إلى إيمان ، والإيمان يلزم عنه فعل وعمل ، وليس أى عمل

1- سورة البقرة : الآية ٨٩ .
2- سورة البقرة : الآية ١٤٦ .
3- سورة النحل : الآية ٨٣ .
4- سورة البقرة : الآية ٢١٦ .
5- سورة آل عمران : من الآية ٦٦
6- سورة الأعراف : الآية ٦٢ .
7- سورة يوسف : الآية ٨٦ .
8- سورة يوسف : الآية ٩٦ .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ... ﴾[1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ... ﴾[3]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ... ﴾[4]

فالأعمال الصالحة مبعثها الإيمان ، ومن هنا جاء الصلاح ، والصلاح يدل دلالة واضحة على وجود الإيمان ، وكأننا لا ننتظر عملا صالحًا من رجل بلا إيمان لأن الإيمان هو الدافع والحافز ، وبدونه ينتفى الحافز إلى العمل الصالح .

وهذا هو الإيمان الحق ، يشحذ النفس الإنسانية ، نور يشيع فى النفس يضىء كل الجوانب المظلمة ، ويطهرها من كل ما من شأنه أن يطمس نقاءها وتقواها

وعدم التفرقة بين المعرفة والإيمان ، ربما يكون سبب الأزمة التى تعيش فيها الشعوب الإسلامية .

ففى زماننا هذا نسمع عن صحوة إسلامية ، ازداد الناس معرفة بالدين . تجده هذا فى أحاديثهم إذا اجتمعوا رجالا أو نساء ، شيوخا أو شبانا ، جل أحاديثهم فى الدين ، هذا حرام ، هذا حلال ، سواء أكان فى المطعم أو المشرب أو الملبس أو المكسب ، الجرائد والمجلات تخصص مساحات لا بأس بها فضلا عن جرائد ومجلات متخصصة فى الدين برامج التلفاز تخصص ساعات متواصلة لتقديم برامج متصلة من قريب أو بعيد بالدين تلك البرامج والقنوات أفرزت دعاة ورجال دين لا بأس بهم يشغلون الناس ويشاغلونهم

١- سورة البقرة : الآية ٢٥ .
٢- سورة البقرة : الآية ٢٧٧ .
٣- سورة آل عمران : الآية ٥٧ .
٤- سورة الأعراف : من الآية ٤٢ .

بأمور قد تكون من صلب الدين أو لا تكون . إنهم يملأون أوقات الناس أفضل من أن تملأ بما تبثه القنوات الضالة والمضللة .. هذا شىء طيب ، وندعو الله أن يزداد أكثر وأكثر ويقترب الناس ويتنبهون إلى دينهم ، لأن ذلك هو العاصم من كل شرور ومصائب الحدثان .

ولكن ثمرة كل هذا ... أين هى ؟!

المفروض أن ينعكس كل هذا على حال المسلمين .

تتطور حياتهم ، ترتقى أوضاعهم ، يقوى بنيانهم ، يهاب جانبهم تتوحد صفوفهم تعلو كلمتهم .... الخ

فمثلا العرب قبل مجىء الإسلام كانت أمة ضالة ، تكاد لا تذكر فى العالم حفنة من القبائل والجماعات الرحل ، وفئة تعمل بالتجارة ، يتسكعون على بوابات أسياد العالم، فى ذلك الوقت ، ويخطبون ودهم ورضاهم ، وينظر العالم إليهم نظرة الاستخفاف والاحتقار والهوان ، وتلك النظرة لم تكن متجنية على العرب أو فيها غبن أو ظلم ، فليس لدى العرب آنذاك – ما يقدمونه ، وليس لدى العرب ما تحرص عليه بقية شعوب العالم ، كى يتقربوا إليهم زلفى ، وليس لدى العرب ما يجعل بقية الأمم تخاف من شأنهم أو تهاب أمرهم وجاء الإسلام !

وفى مدة وجيزة تكاد لا تذكر فى عمر الأمم ، ومراحل الشعوب أصبح العرب قوة عالمية ، بل القوة العالمية الوحيدة . ونشرت الخير والعدل والسلام فى أنحاء العالم .

هذا أثر الإسلام فى الجماعة .

هذه هى الثمرة .

هذا هو الحصاد .

هذه هى النتيجة .

فما بالنا فى الحاضر لا نجد ثمرة ولا حصادًا ولا نتيجة ؟!

والدين هو الدين ، والعقيدة هى العقيدة لم يتغيرا .

إذن الذى تغير هى النفوس .

هناك عنصر مغيب عن المعادلة ، لذلك لم تخرج بالنتيجة .

هذا العنصر هو الإيمان .

هناك أزمة إيمان ... أو قل أزمة عمل .

الإيمان الذى يجعل الإنسان ينسى نفسه ، ولا يتذكر إلا أنه فرد فى أمة لها حقوق ولابد أن تؤدى تلك الحقوق لأنها من صلب الدين ، والتخلى عنها يعتبر خيانة كبرى فى حق الله أولا ، وفى حق تلك الأمة ثانيا .

وعمل لابد أن ينجز فى أكمل صورة وأتم معانيها ، والتقاعس عن تأدية هذا العمل يعتبر نقضًا للعهد الذى بينه وبين الله ، وبينه وبين أمة محمد ﷺ .

وطالما لم ترتق تلك الأمة ، وتأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم ، وطالما لم تستجمع أسباب القوة فى هذا العصر بجميع صورها وأنواعها . فلتشك تلك الأمة فى قوة إيمانها وليراجع كل فرد من أفرادها إيمانه وعمله .

إيمان بلا عمل لا قيمة له .

وعمل بلا نتيجة لا جدوى منه .

نتيجة لا تساهم فى رقى تلك الأمة هى نوع من الإفلاس .

أما إيمان عمر ، فهو إيمان يصل به لا إلى أنه سيقف فى يوم ما بين يدى الله يحاسبه ، بل يجعله يشعر أنه الآن فى اللحظة الآنية التى يعيش فيها – بين يدى الله وهو حى ، وهو سائر فى الأسواق ، وهو يتعسس وهو يأكل وهو يشرب ، وهو نائم، وهو صامت

وهو يتحدث الموت لا يمثل له انتقاله بين عالمين ، لا يوجد لديه هذا الانفصال الحاد بين العالمين ، فالله مطلع عليه فى الأولى ، ومطلع عليه فى الثانية ، فهو ميت وهو حى ، وهو حى وهو ميت . وهذا يوضح سلوكه بعدما طعن لم يشغله شىء مما يشغل المتيقن من الموت المقبل عليه ، وإنما شغله – ما كان يشغله دائما – حال المسلمين ... من الذى سيتولى الخلافة بعده ؟؟

لا وزر ولا أجر

ما الذى يمنع عمر أن يولى الخلافة ابنه (عبد الله) ؟

- مواصفات (عبد الله) ... تجتمع فى (عبد الله بن عمر) كل المواصفات التى تؤهله لأن يكون خليفة ، التقى والعلم والعفاف .. إلخ وقبل كل هذا فهو تربية عمر .
- اعتراض ... لا أحد يعترض إذا خرج عمر على المسلمين مسميا الخليفة الجديد بأنه (عبد الله بن عمر) فليس هناك ما يمنع عبد الله أن يكون خليفة .
- احتجاج ... لن يحتج أحد ... أن (عبدالله) قد أخذ حقه ، فالخلافة لم تكن من حق أحد من المسلمين ، ولن يوصى الخليفة بمن يأتى بعده ، ليس أمام المسلمين فى تلك اللحظة إلا السمع والطاعة . وشىء طبيعى أن يؤثر الخليفة أو الحاكم ابنه على الآخرين ، حتى ولو تساوى ابنه مع الآخرين فهو يرجح كفه ابنه المنطق الغريزى يؤكد هذا الترجيح ... وليس كون (عبد الله) أنه ابن الخليفة ذنبًا يعاقب عليه ويبعده عن الخلافة ويجعله لا يطمح أن يكون فى يوم من الأيام خليفة .

- الخلافة ممنوعة عن ابن عمر... لا لشيء إلا لأنه ابن الخليفة "حين دعي للقاء ربه ، واقتربت اللحظات التي سيودع فيها دنيا الناس ، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذي يسلمه الأمانة والزمام ، اقترب منه (المغيرة بن شعبة) قائلا له : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه (عبد الله) هنالك انتفض (عمر) وقال : (لا إرب لنا في أموركم إني ما حمدتها) يعني الخلافة – فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي .

إن كانت خيرًا فقد أصبنا منه .

وإن كانت شرًّا ، فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ... إلا أني قد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافا لا وزرولا أجر إني لسعيد" [1]

الخلافة عبء ومسئولية ثقيلة ، وإذا كانت مقدرة على عمر ، وتحملها ، ولا يعلم هل أدى الأمانة أم قصر ؟ لا ، لا أحد من آل الخطاب يتولى الخلافة بعده ... لقد أشفق على ابنه منها ... وأخذ عمر يستشير هذا ويشاور ذلك ، ما فعله وما فكر فيه تفكير رجل الموت لا يمثل له أمرا ذا بال ، لا تشغله نفسه عن أمور المسلمين ، ورد على أناس طلبوا أن يحضروا له الطبيب فقال لهم : "ويحكم أيها الناس أأنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين"

وأرادها ولأول مرة شورى بين المسلمين : "قال : ادعوا لي عليا وعثمان وطلحة والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص . فلم يكلم أحدًا منهم غير علي وعثمان فقال يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون حقك وقرابتك من رسول الله ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه

١- بين يدي عمر - خالد محمد خالد – (٥٤) .

والعلم . فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنك وشرفك فإن وليت هذا الأمر فاتق الله . قال ادعوا لي صهيبًا فدعى له فقال : صل بالناس ثلاثا وليخل هؤلاء القوم في بيت . فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالف فاضربوا رقبته فلما خرجوا من عنده قال : أن تولوها الأجلح يسلك بهم الطريق ؟، فقال ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ؟

قال : أكره أن أتحملها حيا وميتًا"

هل هناك قوة إيمان بعد ذلك ؟

رجل يعرف ألا مناص من الموت ، ينزف دمًا من أثر الطعنة القاتلة ، ينتظر الموت بين لحظة وأخرى ، ووهن الموت يتسرب إلى جسده والباكون حوله ينتظرون اللحظة الفارقة

الإسلام .

المسلمون .

لا شاغل يشغله عنهما .

والدقائق الأخيرة من حياة عمر – وكل دقائق حياة عمر كانت أخيرة بالنسبة له مهمة للغاية ، فهي دقائق كاشفة عن معدن أي رجل ، تلك الدقائق المعدودات تلخص حياة طويلة عريضة ، حياة شريفة نبيلة .

يستخلف أم لا يستخلف .

كلا الأمرين جائز أمامه .

فإن لم يستخلف فقد اقتدى بالرسول ﷺ .

وإن استخلف فقد اتبع أبا بكر الصديق

يعز عليه ألاَّ يقتدى بنبيه ، ويصعب عليه ألاَّ يتبع صاحبه .

فليجمع بين الأمرين ، يستخلف ولا يستخلف فى نفس الوقت ويخرج بأمر ثالث لا قبل للمسلمين به ، ومبرر اختياره للصحابة الأجلاء بعينهم دون غيرهم ، أن الرسول ﷺ مات وهو عنهم راض ، مبرر حق وصدق ، وكان ضمن الستة الصاحبىّ (سعد بن أبى وقاص) وكان عمر قد عزله ، وخشى أن يظن الناس أنه عزله عن مظنة ، فأراد أن يبرىء ساحة سعد ، قال : "فإن أصابت الإمرة سعدا ، فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ، فإنى لم أعزله من عجز ، ولا خيانة"

الجرح القاتل ينزف ، والجسد يضعف ، واليقين يقترب شيئا فشيئا ومع ذلك لا ينسى عناصر الأمة الإسلامية فيوصى بها عنصرًا عنصرًا "أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرفتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴾[1] أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وحياة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالأعراب خيرًا ، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام . أن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفوا إلا طاقاتهم"

رجل لم يخرجه انتظار الموت عن مألوف عادته ، وكأنه آل على نفسه ألا يترك مسئوليتها إلا مع آخر نفس يتردد فى هذا الجسد المسجى الممزق الأديم .

١- سورة الحشر : من الآية ٩ .

الفصل التاسع :

العمرية مبعثها العدل

العُمرية مبعثها العدل

لم يشغل عمرَ شىء قدر ما شغله العدل .

ولم يؤرق عمرَ شىء قدر ما أرقه كيفية انتشار العدل وتغلغله فى حياة الناس اليومية ، ليس فى الجزيرة العربية فحسب بل فى جميع البلدان التى تظللها الراية الإسلامية . بل أراد أن يكون العدل كالهواء يتنفسه الإنسان ويكون كالشمس يصل دفئه ونوره إلى كل مكان فى الكون ، ينعم به الإنسان – أى إنسان – مهما كان دينه ولونه وموطنه .

حُلم نبيل ، وغاية شريفة لرجل عظيم ، لم يكتف أن يؤسس ديوان القضاء ويعين القضاة ، ويوصيهم ويؤكد على ذلك ويتابعهم متابعة دقيقة ، بل أراد أن يعاين بنفسه وإن كلفه ذلك مشقة لا مثيل لها ، يقول : "لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلىَّ وأما عمالهم فلا يرفعونها إلىَّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا"

أن يتصف الإنسان بصفة كريمة هذا شىء عظيم .

وأن تذاع تلك الصفة ويعرفها كل قاصٍ ودان ، وتكون تلك الصفة علمًا على صاحبها فهذا أعظم .

فعمر حاكم عادل فى وقت كانت وسائل الاتصال بين البلدان من الصعوبة والعسر وأن ينتقل الخبر من مكان إلى آخر قد يستغرق الأمر شهورًا لذلك فالبلاد تعيش فى شبه

عزلة ، وأيضًا كان هناك فاصل وفارق بين الحاكم والرعية ، فقد لا تعلم الرعية شيئا ذا قيمة عن الحاكم إلا ما تسمعه من قصائد قيلت فى تمجيده ويعلم الله إذا كانت تلك الصفات التى أشاد بها الشاعر حقيقة أم منحولة . وأن يشتهر حاكم بصفة ما وتعم معرفة تلك الصفة جميع الأرجاء ، ولا تكون فى خفاء على أحد ، وأن تواتى الناس الجرأة أن يقصدوا الخليفة لا لشىء إلا ليشكوا له لطمة أو ضربة واثقين أن شكواهم ستسمع، وأنه سيقتص لهم ، غير خائفين من سلطة ونفوذ المشكو فى حقهم ، فهذا شىء يدعو للإعجاب حقًّا "قبل أن نسأل : كيف عدل عمر ؟ ينبغى أن نسأل : كيف علم الناس من الحجاز إلى مصر ، ومن العراق إلى الحجاز ، ومن المسلمين والذميين ، ومن العلية والسوقة ، أن العدل كائن ، وأن طريقه مأمون على طالبه ، وأنه أقرب منالا من الصبر على الظلم وإن هان ؟

ولو لم يكن عهد عمر مسبوقا بعهد جرى فيه الإنصاف مجرى الوقائع الملموسة وشاعت أنباؤه ومآثره فى كل فج وحدب لما طلبه الناس من أقصى مكان ولا خفوا إلى طلبه فى أكبر الأمور وفى أصغرها على السواء .

أمن المألوف فى عصرنا هذا أو فى عصر مضى أن يساق فاتح القطر بسيفه مئات الفراسخ والأميال لأن ابنه رفع سوطه على فتى من الفتيان فى حلبة سباق؟

أمن المألوف أن يخف الشاكى هذه المئات من الفراسخ والأميال وهو على يقين من عاقبة هذه الرحلة وعلى أمان من نقمة الفاتح الظافر الذى يشكوه ؟

أمن المألوف أن يتساوى الملوك والسوقة من أجل لطمة ؟ وأن يتساوى الأمير والجندى ضربة لضربة وإذلالا بإذلال على مشهد من أتباعه ورعاياه ؟

موضع الدهشة هو هذا قبل أن يدهشنا العدل من الفاروق .

موضع الدهشة ، قبل العدل ، ثقة بالعدل لا يخامرها الشك والتردد ولا يقر صاحبها على الظلم ولو جشمه طلب الإنصاف مسيرة أيام ومجازفة بخطر الانتقام !

ثقة وطمأنينة لا تتعلق الآمال بمطلب أعلى منهما ولا أغلى فى حياة بنى آدم وحوا ممن أين جاءت هذه الثقة وهذه الطمأنينة ؟

من عند الله ! [١]

نعم ... إن عدل عمر المطلق بالمنظور الإنسانى ، لا تفسير له إلا أن نفس عمر موصولة صلة قوية ودائمة بالله ، اتصال يمده بمدد لا ينقطع يجعله ينفذ إلى جوهر الوقائع أمامه ولا شىء يمنعه من أن يحكم بالعدل غير ما ناظر إلى ما يترتب على ذلك . فالعمرية التى تتملكه وتملى عليه تصرفاته وأفعاله ، تدفعه وتحضه على طاعة فيما أمر بالعدل يقول عمر فى إحدى خطبه : "... وإنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل ذلك سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه".

كلام فى غاية الشدة ، لا يقدر عليه سوى عمر ، وقد لا يرضى البعض انظر إلى رد الفعل أو القول عند عمرو بن العاص : "فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته أنك لتقصنه منه . فقال أى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه أنا ، وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ألا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتذلوهم" .

هذا الحاكم القوى الجبار المهاب الجانب ، فى أى جانب هو ؟

---

١ - الديمقراطية فى الإسلام - عباس محمود العقاد : (١٤٣ - ١٤٤) .

أهو فى جانب الأقوياء والولاة ، ويشغله هيبة الدولة وقوة جهازها وكلمتها وأمرها النافذ سواء كانت على حق أم على باطل ؟

أم يشغله عامة الناس والضعفاء منهم ، الذين لا حول لهم ولا قوة والبؤساء الذين لا يستطيعون مقاومة أو اعتراضا ؟

عمر لا يعنيه شىء سوى تنفيذ العدل كما أمر به الله ، وكما رأى بعينه كيف يجسده رسول الله ، وكثير من بواعث تصرفات عمر يفسرها اقتداؤه برسول الله ﷺ جانب هام من جوانب العمرية ، ظل رسول الله يغطى مساحة واسعة منها ... قال رسول الله ﷺ فى مرض الوفاة "أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منى ، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضى فليستقد منى ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى"

نبى الله المعصوم ، الذى كان الملك يتنزل عليه ليل نهار ، يسدده ويرشده ويعلمه ويطهره ، مثال العدل والحق والخير والرحمة ، الذى كان المسلمون يفدونه بأنفسهم وأمهاتهم وآبائهم ... فى آخر عهده بالدنيا يعرض ظهره عرضه وماله ، ولن يغضب الرسول إذا أحد تقدم وأخذ حقه من الرسول ... فليس من خلقه ولا من طبعه الغضب من الحق أو مقت من يطالب بالعدل .

تصفح ما شئت من سجلات الإنسانية ، ونقب عمن شئت من عظماء الدنيا وفتش عما شئت عن مواقف وأفعال تشهد لأصحابها فى حياتهم وبعد مماتهم وتأمل ما شئت بزوغ دول ونمو أمم وانسياح شعوب فى الأرض . فلن تظفر فى سجلات الإنسانية ، ولن تعثر على عظماء فى الدنيا ، ولن تشهد مواقف وأفعالا ولن تصادف دولا وأمما وشعوبا مثلما هو حادث هنا .

إن لم يكن هناك إلا صورة واحدة تعكس كل ما اشتملت عليه الإنسانية من نبل وشرف وسمو ورقى وإيثار فلن تكون تلك الصورة إلا عمر.

ومواقف عمر الشاهدة على عدله كثيرة لا تحصى، وهى تروعك لعظمة دلالتها وعظمة صاحبها ... فحينما يعدل عمر فهو قائم على أساس جوهرى من أسس العقيدة الإسلامية ناهض بأهم وأقوى دعامة من دعائم تلك العقيدة ... وهو ميزان لا يخطئ فى تقدير العقائد التى يدين بها بنو الإنسان منذ أن استيقظ ضمير الإنسانية، وهفت أفئدتها إلى الأمن هذا الميزان هو الحكم المنصف ... الحكم بالعدل بين الخلائق، وعلى قدر تأصل هذا المبدأ على قدرة تماسك تلك العقيدة وقوتها وخلودها "إن مسألة الحكم المنصف مسألة أساسية جوهرية فى العقيدة الإسلامية، وليست بالمسألة العرضية التى يشار إليها مرة هنا ومرة هناك، مضافة إلى غيرها من الدواعى والمناسبات"[1]

وهناك فرق أن تعدل لأن قضية أمامك تتطلب العدل والحكم، وتعدل لتكشف عن مبدأ سارٍ فى الكون كله، مبدأ بنى عليه الكون، وهو متغلغل فى كل جزئية من جزئياته...إنسان وحيوان وجماد "قال رسول الله ﷺ: إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة"

فالعدل ليس مطلبًا إنسانيا يتحرق إليه الإنسان شوقا إذا اصطلى بنيران الظلم وحرقة الغبن، ويكون فى غنى عنه إن لم تدفعه الدواعى وتلجئه الظروف إلى ذلك، ولكنه أساس مكين بنى عليه الكون وأقرَّه خالق الكون:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[2]

---

١ - المرجع السابق – صفحة ٥٤ .
٢ - سورة الرحمن : الآية ٧ .

﴿...وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ (1)

﴿...وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ...﴾ (2)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ (3)

وخالق الكون أمر بالعدل ومن قبل أسس ونظم الكون على العدل ، فانون يشمل الخلائق جميعهم ، وأوامر الله منفذة حتى لو لم يطيعها الخلائق ، وهي قائمة حتى ولو لم يؤدها الخلق ، فهم لا يملكون ردها ولا يستطيعون هدمها :

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ...﴾ (4)

إذن وجود خالق عادل فيه تقويض لكل صور الظلم ، وإبطال لجبروت وطغيان الظالمين في كل زمان ومكان ، وما الكون إلا بمثابة قاعة محكمة تجرى فيها كل مراسم العدل والإنصاف بدون خداع أو زور أو تزييف لأن القاضي والحاكم هو الله أعدل الحاكمين "ويؤمن المؤمن بحكومة الكون على هذا المثال فيحق له أن يقول إن في الكون حكمًا وإن للحكم سنة وإن قضاء الحق فوق قضاء الأقوياء" (5)

وقد أدرك عمر أن الأمم والحضارات تنهار في الأرواح والنفوس قبل أن تنهار في البنيان والصروح ... وذلك حين يفقد بنوها الأمل في بقائها وأيضا حين يشعرون أن رصيد تلك الحضارة من القيم والمبادئ قد نضب ، وأنها لم تعد ترضى حاجتهم إلى قيم العدل والخير والحق ، ولم تعد تعزز إحساسهم بآدميتهم وإنسانيتهم ، وإن كانت ترضى حاجتهم

---

1 - سورة الحديد : من الآية 25 .
2 - سورة النساء : من الآية 58 .
3 - سورة النحل : من الآية 90 .
4 - سورة الأنعام : من الآية 115 .
5 - الديمقراطية في الإسلام : صفحة 54 – عباس محمود العقاد .

الدنيوية إرضاءً لا مزيد بعده ، لتحاول أن تعوض القصور والنقص فى الجوانب الأخرى وآمن عمر أن أهم أساس تقام عليه الأمم والحضارات هو العدل ، وإن وجود هذا الأساس المهم والخطير يعوض عدم وجود بعض الأسس الأخرى ففى عدم وجوده تنهار الأمم وتتقوض الحضارات ، حتى لو توافرت لها الكثير من الأسس والركائز الأخرى ، لأن كل الأسس وكل الركائز تستمد قوتها وسر بقائها من العدل .

وعمر لا يكتفى أن يتصف شخصيًّا بالعدل ، بل يجد واجبًا عليه أن يحمل الناس حوله أن يتصفوا بتلك الصفة ، ويتخلقوا بهذا الخلق الحميد ويصبح العدل قيمة أصيلة وعطاءً يوميًّا يتعاطاه الناس فيما بينهم فى حياتهم ، فلا معنى أن يكون عمر عادلاً ومن حوله لا يقدرون هذه القيمة ، فمن ضمن الأسباب التى جعلته عادلا رغبته النبيلة أن يكون الناس كذلك ... ولن ينكر الناس دعوته تلك والإلحاح عليها واللجوء فى بعض الأحيان إلى الشدة والحزم ، التى قد تغضب الكثيرين وتجعلهم يضيقون ذرعًا ويتبرمون ولا يتحملون هذا القسطاس المستقيم ... مثلما فعل مع (جبلة بن الأيهم) الأمير الغسانى الذى دفعه موقف عمر أن يعود هو ومن معه إلى دين النصرانية بعد أن كان قد أسلم ، ولم يعجبه أن يقتص منه لأنه لطم رجلا من عامة المسلمين الذى داس على إزاره أثناء طوافه بالحج ، ولم يخسر عمر شيئا ولم يخسر الإسلام شيئا ، إذ ما فائدة ملايين يدخلون الإسلام وهم رافضون مبدأ مهما ، وقيمة عظمى من قيم هذا الدين وهو العدل ؟!

وعمر ألزم نفسه وألزم ذويه بهذا المبدأ ، قبل أن يلزم الآخرين به ، فهنا تحقق مبدأ المساواة ، وغاية ما يطلبه الناس فى كل العصور هذا المبدأ ، وإذا رأى الناس تحققه ، فهم على استعداد أن يفعلوا المعجزات ،هم على استعداد أن يتحملوا ما لم يكن لهم قدرة من

قبل على تحمله ، وعزاؤهم أنهم متساوون ... ألم يسر على ألسنة الناس مقولة "المساواة فى الظلم عدل" .

الظلم ... هذا الإحساس المؤلم ... ولن تجدن نفسًا لها طاقة على تحمله ، وإن تحملته حينًا فستضج به وتضيق به ذرعًا بعد حين ، وقد تثور من عبء تحمله ، وكل الثورات والحركات التى شهدتها الإنسانية لم يكن باعثها ومفجرها الفقر أو الحرمان ، أو أشياء من هذا القبيل ، ولكن الناس يثورون لأنه أصابهم ظلم وافتقدوا العدل ، يثورون مهما كان الضرر ، ومهما كانت العواقب التى تترتب على هذه الثورة ، فللنفوس طوق وقدرة على تحمل الظلم ، فإذا تعدى الأمر تلك الطاقة والقدرة وزاد ، تساوت كل البدائل أمام النفوس وكما يقولون "لم يعد فى طوق الصبر منزع". كتب عمر بن الخطاب إلى العمال "اجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا ، والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار" .

ولو ساعة من نهار ، فقد تصلح تلك الساعة فساد عشرات السنين ، فقد جاء فى الأثر : "عدل يوم كعبادة أربعين سنة" شىء واحد يفتح جميع الأبواب والمنافذ أمام النفوس ، فلا تجدن غيظًا ولا كظما ولا مكبوتًا ، ولن تجدن نفوسًا قلقة متململة ، ولن تجدن وجوها متقلبة تبحث عن بدائل أو مخارج مما تعانيه ، ومما يثقلها ... هذا إذا تحقق مبدأ العدل .

وكل الصفات التى اتصف بها عمر رافد تأخذ من نبع واحد ثرّ ، هو العدل المركز الذى يشع منه كل خلاله ، أو البؤرة التى يتجمع فيها كل ما يتصف به من صفات ، أو قل هو المبدأ الذى يبدأ منه والمنتهى الذى ينتهى إليه أو هو النهر المتدفق يحده شاطئان من العدل والإنصاف ، يرسمان اتجاهه ، يحددان طريق سيره

"كل الصفات تتمة لجميع الصفات ... كل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل" (١)

فعمر رحيم لأنه عادل .

وعمر شديد لأنه عادل .

وعمر مؤسس دولة لأنه عادل .

وعمر قوى لأنه عادل .

وعمر تقى لأنه عادل .

وعمر أحب العدل لأنه مقت الظلم .

وعمر أحب العدل لأنه يليق بالرجل الشريف

وعمر أحب العدل لأن الله أمر به وتسمى به

وعمر أحب العدل لأنه أراد أن يكونه ، بل أراد أن يكون الكون كله قبسًا من قبسات العدل والإنصاف .

"كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم" (٢)

١- عبقرية عمر – صفحة ٦٣ – عباس محمود العقاد .
٢- عبقرية عمر – صفحة ٩١ – عباس محمود العقاد .

تجمعت فى عمر كل الصفات التى تشكل القاضى فى صورته المثلى من العفة والشجاعة والجرأة والحكمة والنزاهة والصراحة والتأنى والقوة والعلم والدقة والاستقامة والثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة والأنفة وخلوص النية وصراحة الإيمان .

فلا تدرى أتجمعت تلك الصفات لتصوغ من عمر قاضيًا أم أن عمر جمع تلك الصفات ليكون شاهدًا على نموذج القاضى ، بل على كل قاضٍ فى عصره وفى كل العصور بعده ؟

وكأن عمر قد خلق لا لشىء إلا ليكون قاضيًا ، وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول قاضٍ فى الإسلام .

وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول مؤسس لديوان القضاء ، ومنظر للمعايير التى يجب أن يلتزم ويسير عليها القاضى .

وحينما نتأمل الرسالة التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى ، نتعجب أنى جمع عمر هذا العلم الشامل والخبرة العميقة ؟

ومن أين أتى بهذا القول الفصل فى أصول التقاضى ؟

لا شك أنه شىء فطرى فى شخصية عمر ، أضف إلى ذلك ما تعلمه من نبيه الكريم وما خبره من القرآن والسنة .

هناك روافد شتى تجمعت لتجعل من هذه الشخصية الفريدة المجيدة هذا الشىء العظيم الباقى على الزمن ... إنه العمرية .

كتب عمر : "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ... أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة

فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالا

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدًا ينتهى إليه فإن أحضر بينة والا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والإيمان

وإياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس وما تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام"

قد لا تدهشنا تلك الرسالة بعد مضى ألف وأربعمائة سنة على كتابتها وقد لا يثير اعجابنا كاتبها . لأن الآن وصلت الإنسانية إلى مراحل راقية من نضجها وأسهم المفكرون

والفلاسفة والمصلحون فى وضع الدساتير وتقنين القوانين ، وهناك رصيد ضخم وهائل من القوانين التى تراكمت على مر القرون ، وهناك منظمات فى طول البلاد وعرضها تلهج بدون توقف بحقوق الإنسان ، وهذا شىء محمود

ولكن حينما نعرف حالة العالم والمناخ السائد الذى كُتبتْ فيه الرسالة ، وما كان يحكم العالم ويسوده من ظلم وطغيان وجبروت واستبداد وتحكم من الأقوياء وأن البشر فى ذلك الوقت لم يكونوا إلا نوعين لا ثالث لهما ، إما ظالم أو مظلوم أو آكل أو مأكول ، نوعًا يعيش متمتعًا بكل ما فى الحياة من ترف ونعيم ، وآخر يعيش مسخرًا مستعبدًا مملوكا .

وحينما نعرف أن تلك أول رسالة من حاكم أو أمير إلى عامل من عماله أو قاض من قضاته ، ليست من مفكر أو مصلح ، أو لم يتقدم بها فرد ينوب عن الرعية ، أو لم تقم لجنة منبثقة عن لجنة بصياغة هذا الدستور... نعجب أيَّما إعجاب بالرسالة وبكاتبها .

ولكن ما فائدة تلك الرسالة ؟ وما فائدة العمل بها ؟

إنها تقعد العدل ، تجعله قاعدة ، تلك القاعدة لها مواصفات وأحكام وهى فى غاية الأهمية ، لأنها تحدد مصير وشكل ما يبنى عليها .

وأى تفريط أو خلل فى تلك الأسس سيعرض البناء كله للتقويض والانهيار قبل أن ينفض العمال أيديهم من وضع آخر لبنة فى البناء .. معايير وأسس وقواعد لابد أن تراعى وبدقة متناهية .

كذلك بناء الأمم والحضارات ، فلا يغرنك ضخامة البناء وطلاؤه ، ولا يغرنك كل ما يظهر فوق الأرض من مظاهر الترف والبذخ وعلو البناء وشموخه ، ولكن انظر إلى ما خفى تحت الأرض ، ما استبطنته عناصر ومظاهر تلك الحضارة ، ما يسرى فى عروقها ، ما ينظم ويحدد نوعية العلاقات بين الناس ، ما تخفيه ضمائرهم وتعكسه أفعالهم وتصرفاتهم

ويجول بخواطرهم وأقصد به روح الأمة ، وضمير الحضارة . هل هناك روح أم لا . وهل هى متمثلة وملموسة ولها أثر فى كل ما حولك أم لا ؟

والروح نابعة من المعتقد ، وعلى قدر قوة وصدق ووضوح هذا المعتقد وتقديمه للمؤمنين به رؤية ونظرة شاملة ومتسقة مع الكون على قدر قوة الروح . على قدر قوة البناء أو الأمة أو الحضارة .

"وتقوم قوة المعتقد التى لا تقاوم على أنها العامل الوحيد الذى يستطيع أن ينعم على الأمة بوحدة مطلقة من المنافع والمشاعر والأفكار حينا من الزمن ، وهكذا تقوم الروح الدينية دفعة واحدة مقام تلك المتراكمات البطيئة الموروثة الضرورية لتكون روح الأمة، أجل إن الأمة التى يهيمن عليها المعتقد لا تغير مزاجها النفسى غير أن جميع ملكاتها تتوجه بذلك إلى غرض واحد تتوجه إلى نصر معتقدها ، فتصبح قوتها هائلة لهذا السبب . وفى أدوار الإيمان التى تتحول ذات حين تقوم الأمة بتلك الجهود العجيبة تقوم بشيد الدول التى تدهش التاريخ ومن ذلك أن بعض القبائل العربية التى اتحدت بفعل فكرة محمد ﷺ بهرت فى قليل سنوات أمما كانت لا تعرف منها حتى الأسماء فأقامت إمبراطورية واسعة" [١]

على هذا القدر من الأهمية يكون العدل ؛ فهو سنة طبيعية فى الكون . بها ينتظم ويستقر ، وهو خلجة حية فى الضمائر به تنعم وتطمئن ، وهو روح تنفخ فى جسد الأمة وكيانها فتستوى كائنا حيًّا متماسكا متآزرًا فيما بينه وبين نفسه ومتوافقًا ومتناغمًا فيما بينه وبين الكون ، ينشر الأمن والسلام فى ربوع الأرض

---

١ - الأسس النفسية لتطور الأمم – غوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – صفحة ١٦ .

والتاريخ يحدثنا - ونحن شهود - أن كثيرًا من الأمم ، قد قامت وسيطرتْ وهيمنتْ وكثيرًا من الحضارات قد أنشئت وبزت وتفوقت ، ولكن لم يكتب لها البقاء إلا حينًا من الزمان . إما لأنها كانت بلا روح ، أو كانت لها روح ولكنها لم تطق البقاء لمناقضة ومعارضة الواقع لها ، فهربت وتقلص أثرها ، وتقوضت الأمة وانهارت الحضارة ... وقد تبقى الحضارة حينًا بلا روح ، ولكنها حضارة مفلسة عاجزة ، لا ترضى إنسانية وآدمية الإنسان وإن كانت ترضي شهواته وغرائزه وغروره وطمعه وجشعه .

وحينما تقتبس أمة ما من أمة أخرى حضارتها ، لابد قبل كل شيء أن تقتبس روح تلك الحضارة لا مظاهرها وعناصرها المادية ، ونقصد بالروح هنا القيم والمبادئ والمعايير الخلقية وعمادها العدل :

"وما حياة الأمة ونظمها ومعتقداتها وفنونها إلا لحمة ظاهرة لروحها الخفية وما على الأمة التى تود تحويل نظمها ومعتقداتها إلا أن تحول روحها فى بدء الأمر وما على الأمة التى ترغب فى دخول حضارة إلا أن تدخل إلى هذه الحضارة روحها أيضا" [١]

وعمر كان فى طريقه لبناء أمة ، وتأسيس حضارة ، وتقوية عقيدة ، ونشر دعوة فى أرجاء العالم ، وأدرك أن الإسلام سيعرض على شعوب العالم وأن تلك الشعوب ستهوى إليه متى وجدت فيه الحلم الذى ما فتئت تحلم به ، وتناجي به ضمائرها الشيء المفقود الضائع دومًا من حياتها ، وهو العدل .

ويعتبر عمر أكبر وأقوى مؤسس للدولة الإسلامية ، وأنه ساهم فى الفتوحات الإسلامية ، بأكثر وبأعمق وبأشمل مما فعلته جيوشه يقودها صناديد وأبطال الإسلام فى الشرق والغرب ، وذلك حين حكم فى قضية واحدة عرضت عليه ، وكان العالم كله بل

---

١ - الأسس الفنية لتطور الأمم - غوستاف لوبون - صفحة ٢٥ .

الإنسانية جمعاء شاهدة على عدالة القاضى حين حكم بين المصرى وهو من عامة الناس ووالى مصر (عمرو بن العاص)، لم تكن مجرد قضية عابرة حسمت بحكم قاطع من قاض حازم وحاسم وانتصف فيها للمظلوم، واقتص فيها من الظالم فالآلاف من القضايا تعرض على القضاة كل يوم، وقد يكون الحاكم عادلا ويصدر حكمه الذى يرضى المتخاصمين وتطوى القضية فى سجلات المحاكم ولكن الأمر هنا كان جلاء لمبدأ وتأصيلاً لقاعدة وتقوية لأساس من أهم أسس تلك العقيدة، وإعلاماً لشعوب الأرض كلها، إن تلك العقيدة وهذا الدين لا يبغى إخضاع الرقاب بالسيوف، أو تقييد الأجسام بالقهر، ولكن تلك العقيدة تفتح أبوابًا للأرواح لتهدأ بعد طول قلق وتمهد سبلا وطرقا للضمائر، لتطمئن بعد نصب، وتخلق عالما فاضلا للنفوس لتستقر بعد حيرة وعناء.

"على إننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان" [1]

والشعوب تقيم وتزن ما يعرض عليها بميزان حساس هو القسطاس، وهى لا تخضع لطاغية، ولا تفتح عقولها وقلوبها لحائز على نصر فى ميدان معركة تكون الغلبة والنصر فيها لقوة جسمانية أو لقوة أداة أو لذكاء ومكر وخديعة ولا تعتنق عقيدة تعدها بالسعادة فى هذه الحياة الدنيا أو بالجنة المتخيلة تصبح واقعا على الأرض، ولكن الشعوب تفتح قلبها وعقلها وتحنى جباهها لتلك العقيدة التى ترتفع بها فوق الأرض وفوق الجسد لترتقى وتسمو وتزداد قربًا من الخالق.

"ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان، لأنه فتح فى كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد

---

١ - عبقرية محمد – صفحة ١٧٥ – عباس محمود العقاد.

بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ودنابه مرتبة إلى الله"[1]

على هذا نقول إن عمر يُعد من أكبر الفاتحين فى الإسلام ، لا لأن جيوشه هزمت أكبر إمبراطوريتين فى ذلك الوقت ، وزادت فى رقعة الدولة الإسلامية ولكنه فتح بين الإسلام وشعوب تلك الأمم والإمبراطوريات أبوابًا وعوالم من الرجاء والأمل وأحبا فى نفوسهم من الرغبة النبيلة والأمنية الشريفة أن يعيشوا فى هذه الأرض موفورى الكرامة والعزة، يأخذون ما لهم بكل سماحة ورضا ، ويعطون ما عليهم بدون تعسف وجور وكذلك ، يعد عمر من أكبر المؤسسين لدولة الإسلام لا لأنه ابتكر مرافق ودون دواوين ونظم وقعد ورتب ... ولكنه أظهر وجلى قيمة من أعظم القيم فى الإسلام وهو العدل ، والإنسان لا يطالب بالعدل لأنه قيمة فى حد ذاته وكفى ويلهج به كل آن وكل حين لأنه شيء عظيم الأثر وجليل الخطر فى حياته ، ولكنه يؤمن أن الكون كله مؤسس على العدل وقائم على الإنصاف ، لذلك بقى الكون كل تلك الآماد وسيبقى بدون اختلال أو فوضى تطرأ عليه ... كذلك حياة الإنسان، لن تستمر وتنتظم وتستقر إلا إذا ساد المبدأ الذى قام عليه الكون ، وقامت حياته على ما قام عليه الكون ، ولن يكتب الاستقرار للإنسان والهدوء والأمن إلا إذا ساد الإحساس بالعدل فى الضمائر قبل أن يكون شاهدًا من شواهد الواقع المعاش

---

١ - عبقرية محمد – صفحة ١٧٦ – عباس محمود العقاد .

الفصل العاشر :

تـكـامـل العـمـريـة

تكامل العمرية

بعد كل ما سبق ، هل يحق لنا أن نعتبر عمر بن الخطاب شخصية عضالا ؟ أى تجاوزت كل حدود القدرات الإنسانية وعسر على من جاء بعده أن يسير على نهجه أو أن يحقق ما حققه ؟

أن يسير على نهجه أو يتبنى نظرته أو يفكر تفكيره ... لا . ودعنا من محدودية النظر وضيق الفكر ، ولنخرج من عطفة التقديس لأى شخصية إنسانية ، فنحن لا نطالب أحدًا أن يسير على نهج هذا أو ذاك ، كى لا نتهم بفرية التعصب أو التحيز ولكى لا نكون أوصياء على أحد ، ولكى لا نصادر مبدأ الحرية لأى إنسان أن يكون ما يشاء .

ولكننا نطالب – وكل المنصفين – أن تكون طريقة ونهج أى إنسان ملتزمة بالمبادئ الإنسانية من حيث تحرى العدل والخير والحق والإخلاص والصدق والنقاء والطهارة . إذن لا يعنينا أن تسير على طريق هذا أو طريق ذاك أو تختط لنفسك طريقا جديدًا .

والسؤال المطروح : هل النهج الذى تسير عليه مطابق للمواصفات الإنسانية أم لا ؟

فإن كان مطابقًا ... لك أن تضع عليه أى مسمى ، وما تريد من لافتات ، وإن لم يكن مطابقا فلا يجدى أن تضع عليه أشرف وأسمى المسميات ، فالخارج لا يطابق الداخل والظاهر لا يتفق مع الباطن ، وهذا نوع من الغش ، وهو ليس مسموحًا به .

أن يحقق ما حققه عمر ... إن طالبنا أحدًا بذلك فنحن نسىء لعمر أولا ونسىء لأنفسنا ثانيا .

نسىء لعمر إن جعلنا إنجازاته وأعماله وأفعاله قيدًا نقيد به الآخرين وجعلناه دونا عن غيره سواء فى العصور الخالية أو العصر الحالى – معيارًا على ضوئه تقاس إنجازات وأعمال الآخرين لأننا لو فعلنا ذلك ، فسنجد هجمة شرسة على عمر وعلينا

- على عمر تظهر عيوبه وأخطاءه ، وتضخم تلك العيوب ، وتبشع تلك الأخطاء .
- وعلينا ، بأن تسفه ما نقوله ، وتفند أفكارنا ، وتصفنا بالمتجمدين والمتحجرين المولعين بالنظر إلى الخلف .

لذلك فقد أرحناهم من تجشم وتحمل عبء تلك الهجمة ، فقد اعترفنا أن عمر كأى إنسان له أخطاؤه وله عيوبه ، وقلنا إن تلك الأخطاء والعيوب ليست من طبيعة عمر خاصة وإنما هى طبيعة النفس الإنسانية كما خلقها الله ، فأخطاء عمر وعيوبه لا تخرجه عن هذا النطاق ، وإنما تؤكد على إنسانيته ، وأقررنا أننا لا نحجر على أحد ولسنا قيدًا يمنع الانطلاق والابتكار ، وإن المجال أوسع وأشمل من أن نقيد الناس بأنموذج واحد ، وحولهم المئات بل الآلاف .

ومع ذلك تبقى شخصية عمر مغنمًا لدراسة علم النفس وعلم الأخلاق على حدٍّ سواء علم النفس لأن شخصية عمر متكاملة ، شريحة تستطيع أن تدرس من خلالها كل ما تتصف به النفس الإنسانية من صفات متميزة ، واضحة ، متعددة لم ينتقص منها صفة أو حتى خلجة من خلجات النفس الإنسانية كما خلقها الله ليس هذا فحسب بل كل تلك الصفات متآزرة متعاونة فيما بينها يشد بعضها بعضًا .

وعلم الأخلاق لأن شخصية عمر استطاعت أن تصل إلى أقصى ما تستطيع أن تصل إليه النفس الإنسانية من طموحات وآمال ، وقلنا فى فصل سابق إنها لم تكتف بذلك بل تجاوزت تلك الحدود ، أو (خطوط النهاية) كما يقولون فى المباريات الدولية ، أو كسرت

الرقم القياسي، ووضعت خطوطا ومقاييس لم يسبق لنفس إنسانية أن وصلت إليها من قبل، وفتحت مجالات أوسع أمام الإنسان تلك المجالات دعوة لشحذ الهمة، وتقوية العزيمة، وصدق النية، وعلمتنا درسًا مهمًا: إنه ليس هناك حدود أو نهايات للقدرة الإنسانية، على هذا يمكن اعتبار عمر ظاهرة ولكن منفردة، هذا إذا اعتبرنا الظاهرة شيئا خارجا عن مسار المألوف والمعتاد من النفس الإنسانية.

وإذا كان هذا جائزا، فهل نحن في حاجة إلى دراسة هذه الظاهرة، أي في حاجة إلى دراسة الشخصية وتحليلها إلى عناصرها البسيطة؟

أو هل نحن في حاجة أن نضع تلك الشخصية وفق تصنيفات علم النفس للشخصية الإنسانية؟ ولكن لا ينبغي أن ننسى أن موضوع الدراسة (الشخصية) هو الأسبق وهو الباقي وهو الثابت، وأن المنهج مستحدث، وقد تأتي نظريات تخطىء نظريات موجودة الآن، لذا فالمنهج متغير، وقد يقصر عن الإحاطة بالمادة المدروسة. فقد نَغْبِنُ الشخصية إن أخذنا بتصنيفات ومناهج علم النفس لتساعدنا في سبرغور تلك الشخصية، ولكنها محاولة ويحدو تلك المحاولة سلامة النية، ونبل المقصد.

الشخصية والواقع:

يحمد في الطبائع الإنسانية تعدد ما تشتمل عليه من صفات، وما تتصف به من مناقب؛ لأن ثراء الطبائع وغناها منوطة بهذا الأمر.

ويحمد لها أكثر وضوح وقوة وتميز تلك الصفات.

ويحمد لها أكثر وأكثر: تضافر وتكامل تلك الصفات.

فكل الصفات متآزرة متعاونة يسند ويقوى بعضها بعضا ؛ لتخلق في نهاية الأمر مزاجا وقوامًا قادرًا لا أن يتعامل مع الواقع بذكاء وكفاءة ليصلح منه ما فسد، ولكنه قادر قدرة فريدة أن يخلق واقعا جديدًا يتفق وتلك الطبيعة الغلابة .

وحينما تتعامل النفس الإنسانية مع الواقع المعاش فهى مضطرة – بداية أن تتنازل حتى ولو على الحد الأدنى من حريتها ، وأن تقبل بالبدائل ، لأن الواقع بحتميته وصرامته قد يتغلب على النفس ، وقلق النفس ورغبتها القوية والملحة في إصلاح هذا الواقع يجعلها تتصالح – مرغمة – معه ، ولو مؤقتا ، وهى فرصة للمصلح والواقع .

فرصة للمصلح ليبذر بذور الخير علها في يوم ما تنبت وتستغلظ ويستوى سوقها

فرصة للواقع ليراجع نفسه علّه يجد في المعروض أمامه النفع والخير أو هى هدنة يعطى كل منهما الفرصة للآخر ، ويتركان الزمن ليفعل فعله ويؤثر بعدما عز حسم المعركة في الزمن الراهن ، وهذا التصالح من قبل المصلح مع الواقع نوع من النبل أو الشرف أو قل في أوسع معانيه طراز فريد من الرحمة ، وهذا حادث بصفة خاصة مع الأنبياء والرسل وبصفة أخص مع رسول الله فهؤلاء يتعاملون مع الواقع بأسلوبين ... الذكاء والرحمة .

الذكاء :

١. بأن يحاول أن يستثمر نواحى الصلاح والخير وينميها ويقويها ويعطى لها فرصة لتنتشر وتسود ، ومخاطبة نواحى النبل والشرف في ضمائرهم

٢. محاولة إصلاح المفسد ، وهداية الضال ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن وجذبهم إلى معسكر الخير ، وتقوية نواحى الخير ، وإضعاف نواحى الشر وإن لم تنجح هذه الوسيلة ، فليس على الأقل تحيد الشر كى لا يقف عائقًا أو حائلا يعوق أو يحول بين التعامل مع الواقع والاستفادة من العناصر القابلة أو المستعدة

للتغيير ... فأهم ما يحرص عليه المصلح أن يكون هناك تفاعل ... ديناميكية...حركة نشطة بينه وبين الواقع وأكثر ما يخشاه الثبات والجمود ، لأن أخطر ما يواجه أى دعوة فى بدايتها هذا الثبات والجمود ، وانقطاع الصلة أو العلاقة الحيوية بينها وبين الواقع

الرحمة :

الجهل – الغفلة – الغرور – العزة – التكبر – الأنفة – الحمية – الغباء – الحمق الرياء – العتامة ... كل تلك الصفات ، أو واحدة منها قد تمنع الإنسان أن يستجيب لداعى الإيمان ، وقد لا يكتفى بموقف الرفض ، بل يعمد إلى الحرب والصراع ومع ذلك فهؤلاء فى حاجة إلى نوع من التأنى أو من التريث ، فى حاجة إلى تقدير ما يعانونه من مرض ، لأن تلك الصفات قد تكون صفات عارضة ، ليس من صلب شخصياتهم ، وليس خلقا ثابتًا فى طبعهم ، فما هى إلا قشور سطحية يختلف سمكها من شخص لآخر ، كل منهم فى حاجة إلى هدنة أو وقفة ، يراجع أو يقيم أو يتأمل أو يوازن أو يقارن أو يعادل ، وهذه الوقفة فى صالح الحق والخير ، فإذا وقف الإنسان تلك الوقفة ، وأعطى لنفسه تلك الفرصة ، فمعروف أى السبل سيختار ، وأى جهة سيتوجه إليها ، فكما قلنا إن تلك أمراض تصاب بها الشخصية ، وأى مرض فى حاجة إلى وقت وعلاج كى يتخلص الإنسان من هذا المرض وتزايله أعراضه ، ومن ثم تبرأ الشخصية ، والأمل فى الشفاء وارد ،ما لم يصل المرض إلى القلب ، بعدما تعدى السطح ، لأن وصول المرض إلى القلب لا أمل فى البرء منه :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ... ﴾[1]

١- سورة البقرة : من الآية ١٠ .

وأهم دواء بل أنجع دواء لتلك الأمراض الخلقية هى الرحمة وما يستتبعها من صبر وحنو وعطف وشفقة وصفح وغفران ... وسائل علاج يستعين بها النبى أو المصلح فى علاج النفوس . فالطبيب لا يحاكم المريض على مرضه ولا يلومه ولا يعاقبه ، كل ما يشغل الطبيب هو العلاج واتباع أجدى وأيسر وأسهل السبل للوصول إلى الشفاء والبرء من تلك الأمراض ، مستعيًا بالصبر والحكمة والتأنى والتريث ومقدرًا ضيق وتبرم وتململ وسأم وألم ومعاناة المريض .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [1]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2]

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... ﴾ [3]

الواقع وشخصية النبى :

تلك هى شخصية النبى ... عمادُها الرحمة ، والرحمة فى أبسط معانيها : أسلوب أو طريقة للتعامل مع الواقع ومع الناس بهدوء وحكمة ولين وصبر بغية الإصلاح ، بدون إفراط أو تفريط . أسلوب يتفق اتفاقًا حكيمًا مع الواقع : "وهذا شأنه ﷺ يدرج القوم إلى الدين رويدًا رويدًا ، ويلين لهم من جانبه ويتساهل فى مطالبه تأليفًا لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد ، حتى إذا وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى

١- سورة الإسراء : من الآية ٨٢ .
٢- سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
٣- سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

المألوف من عاداتهم ، ويتحملون المشاق فى كل جانب من جوانب حياتهم فى سبيل نصرة ما آمنوا به واستمرار بقائهم عليه" [1]

والرحمة صفة إنسانية ، ومنة ربانية يمن الله بها على من يشاء من عباده ولكن قد تدفع ظروف واقعية وعوامل نفسية الإنسان أن يخرج أو يتجاوز إطار الرحمة أو حدودها إما بالمبالغة أو النقص ، فإذا بالغت فى الرحمة أصبح الأمر أمر تساهل وإفراط ، وقد لا يؤدى التساهل والإفراط إلى ما تؤديه الرحمة ، وإذا تنقصت من الرحمة أصبح الأمر أمر شدة وقسوة وغلظة ، ولا يؤدى هؤلاء إلى ما تؤديه الرحمة .

الرحمة بنسبة محددة ومقننة بميزان حساس ودقيق ، أو هى خط وضع بدقة متناهية لتطويع الواقع والوصول به إلى مراد الله .

ولا يستطيع الإنسان أن يحافظ على تلك النسبة ، ولا يستطيع الالتزام بهذا الخط الحرج ، لأن المشاعر والأحاسيس لا يملك الإنسان التحكم فيها أو ضبطها فهى - دائما عرضه للتبديل والتغيير ... مع أن الرحمة المقصودة - كما قلنا أسلوب أو طريقة معينة للتعامل مع الواقع أو الناس ، وهى ليست أسلوبًا لازبًا فلابد وأن تستخدم فى موضعها الصحيح "أشداء على الكفار رحماء بينهم"

فاستخدام الرحمة فى موقف الشدة نوع من الجبن والخور ، واستخدام الشدة فى موقف الرحمة نوع من الفظاظة والغلظة .

ولكن لا أحد يستطيع أن يحافظ على هذا الخيط الرفيع الذى يفصل بين التساهل والإفراط وبين الغلظة والشدة ، حتى الأنبياء أنفسهم قدلا يستطيعون هذا الأمر ، لأنه خارج طوق النفس الإنسانية : "إن الأنبياء" بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى

١- اجتهاد الرسول : فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى – صفحة ٩٠ .

الالهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى، وجاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد . كما يجوز عليهم النسيان . ويتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته" (١)

والنبى ﷺ قد يتغلب عليه الشعور والإحساس بالرحمة ويبلغ هذا الشعور منتهاه حتى إنه ليتجاوز الخط أو الإطار المحدد للرحمة وهنا يتدخل الوحى منبهًا لهذا التجاوز "قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلا بل ينبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ويظهره لعباده وربما عاتبهم على ذلك بالكلام ، كما فعل مع نبينا ﷺ فى أمر (زينب) وقصة ابن أم مكتوم وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام" (٢)

وهناك موقفان تغلبت الرحمة فيهما على رسول الله ﷺ أو قل هى رغبة جياشة نبيلة تدفع صاحبها بكل إخلاص ، ورأفة وشفقة وحرص على هؤلاء الذين لا يقدرون خطورة وحرج موقفهم وعنادهم وتمسكهم وإصرارهم على الضلال . رحمة تدفع صاحبها أن يقتل نفسه أسفًا وحزنا لأنهم لا يؤمنون :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٣)

رحمة تجعله يحب عدوه ومن كفر برسالته :

---

١ - اجتهاد الرسول – فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى – صفحة ٥١ .
٢ - المصدر السابق – صفحة ٣١ .
٣ - سورة الكهف : الآية ٦ .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾[1]

رحمة تدفعه أن يشعر بالمسئولية الكاملة فى عدم إيمانهم، ويشعر فى قرارة نفسه أن عدم إيمانهم ربما يكون تقصيرًا منه أو عدم القيام بدوره.

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾[2]

رحمة تجعله يبذل كل ما فى طوق النفس الإنسانية من جهد وطاقة كى يهديهم إلى النور والإيمان ويجنبهم الظلام والضلال.

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ... ﴾[3]

وقد بين القرآن الكريم سبب تلك الرحمة:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]

إن هذا الرسول الكريم منكم، فأنتم بعض منه، وهو بعض منكم، التحام عضوى بين الرسول وبينكم، امتزاج كامل بينه وبينكم، وقد جاء تفسير تلك الآية فى الكشاف: "عزيز عليه ما عنتم ... أى شديد شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب (حريص عليكم) حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤوف رحيم) .. وقيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ فى قوله رؤوف رحيم"[5]

---

١ - سورة القصص : الآية ٥٦ .
٢ - سورة البقـرة : الآية ٢٧٢ .
٣ - سورة النحـل : من الآية ٣٧ .
٤ - سورة التوبـة : الآية ١٢٨ .
٥ - تفسير الكشاف - المجلد الثانى - صفحة ٢٢٣ .

والرحمة ليست ضعفًا إنسانيًّا كما قد يفهم البعض، وإنما هى فى حقيقتها قدرة فائقة وقوة غلابة لا تنبت إلا فى نفوس الشرفاء والنبلاء وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل وإمامُهم محمد رسول الله ﷺ؛ لأن تلك القدرة والقوة تستطيع أن تجتث بذور الكراهية والحقد والغضب والضغينة والغل، وتنبت مكانها بذور التسامح والصفح والغفران والعفو والإحسان.

والرحمة بهذا الوصف لا يقدر عليها سوى مخلوق واحد هو النبى محمد ﷺ

الموقف الأول: الذى تجاوزت الرحمة حدودها، موقفه من (عبد الله بن أبىّ) وسنجد عمر علامة بارزة فى هذا الموقف ... إنه هو الصاحبى الوحيد الذى أشار أن الرحمة هنا تجاوزت حدها ... "قال ابن كثير: قال أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له ﷺ: "أهلك حب يهود). قال: يا رسول الله إنما أرسلتُ إليك لتستغفر لى، ولم أرسل إليك لتؤنبنى. فاستغفر ﷺ له، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه.

قال فى تفسير (المنار) تعليقا على ذلك والظاهر أنه ﷺ كان يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو للمشركين ويقول "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه، وبالتالى لم يستجب لدعائه كما جاء فى كتابه الكريم: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم" [1]

الموقف الثانى: الذى تجاوزت الرحمة حدودها، موقف أسرى بدر، وسنجد عمر علامة بارزة فى هذا الموقف

---

١ - اجتهاد الرسول – فضيلة الشيخ – عبد الجليل عيسى ١٠٥.

"لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر، يا رسول الله، قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحه: انظر واديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارًا فقال العباس – وهو يسمع ما يقول – قطعت رحمك. فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا، فقال أناس يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس: يأخذ برأى عمر فخرج رسول الله ﷺ فقال: "إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﷺ، قال:

﴿... فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1)

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ﷺ قال:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(2)

ومثلك يا عمر كمثل موسى ﷺ، إذ قال:

﴿...رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ...﴾(3)

ومثلك يا عمر كمثل نوح ﷺ، إذ قال:

﴿...رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(4)

ثم قال ﷺ: "أنتم عالة فلا ينفلتن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق"

---

١ - سورة ابراهيم . من الآية ٣٦ .
٢ - سورة المائدة : الآية ١١٨ .
٣ - سورة يونس : من الآية ٨٨ .
٤ - سورة نوح : من الآية ٢٦ .

فانزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]

فلما كان الغد ، لقى عمر النبى ﷺ . فقال كاد يصيبنا فى خلافك شر يا عمر

العُمرية :

الواقع والناس كانوا فى مسيس الحاجة إلى هذا النوع الرفيع من الرحمة التى تفرد بها رسول الله ﷺ دون خلق الله .

لأن الواقع فى الأطوار الأولى لأى دعوة فى حالة غليان ، اضطراب سيولة تشكل.قيم عتيقة راسخة كرسوخ الجبال تُزال وقيم جديدة غير مألوفة تؤصل وتؤسس ، عادات وتقاليد مضى على ممارستها آلاف السنين ، يُطالب الناس بالتخلى عنها وسنن وطرق يجد الناس ألا مناص من الالتزام بها لتتفق سيرة حياتهم والدعوة الجديدة ... والنفس الإنسانية فى حاجة إلى لطف لتعبر بكل أمن وسلامة الهوة الفاصلة بين الحياتين القديمة والجديدة...فى حاجة إلى رحمة حتى تستبين الأمور وتفهم وتستوعب وتألف وتتعود .

ولكن بعد أن يستقر المجتمع وترسخ الدعوة فى نفوس الناس ، ويستقيم الواقع الوضع الآن فى حاجة إلى شخصية من طراز آخر ... تحافظ على بقاء الوضع على ما هو عليه ، إلزام الواقع بالقيم والمبادئ والمعايير التى ارتضاها الناس والوقوف بهم عند تلك الحدود ، وعدم السماح بتعديها أو تجاوزها ، ليس فى نيته التصالح مع الواقع أو مهادنته

١ - سورة الأنفال : من الآية ٦٧ : ٦٨ .

أو التكيف معه أو التوافق ... وإنما السيطرة عليه والتحكم فيه وإرغامه لإرادته ... لا توجد لدى الشخصية بدائل أو اختيارات ، لا يلجأ إلى اللين أو التسامح ، ليس هناك ضرورات ينـزل عليها أو يخضع لها ... شخصية مثالية فى أعلى درجات المثالية مع إرادة ينصهر الحديد أمامها ، وتنحنى جباه الجبابرة أمامها .

وهى ليست مثالية خيالية تعتزل الواقع أو تنكره أو تبتعد عنه ولا نريد أن نقول إنها تجابه الواقع ، بل تريد أن تخلق واقعا يتناسب مع ما تؤمن به ، وما تعتقده ، وما يجيش فى ضميرها من قيم الخير والحق والعدل "والمثالى يضرب بالتغييرات الواقعية عرض الحائط إنه يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الواقع الخارجى برمته هو الخليق بالخضوع لما يعتمل بذهنه من صور ذهنية ومن تقيمات ، فالخارج يجب أن يكون مطواعا للداخل ، ومنبع الحقيقة ليس الواقع الملموس" [1]

هو على ثقة لا تهتز أنه على الحق ، وبيده الدلائل والبراهين ... فلم الضعف ؟ ولم التهاون ؟ لا تنقصه القوة ولا الشجاعة ، ولا الجرأة ولا الإرادة ، قرآن منزل من عند الخالق وسنة توجز أقوال وأفعال وإقرارات رسول الله ﷺ ، مع عقل مستنير وحكمة شاملة ونظر ثاقب ، ونية خالصة ، وهمة وثابة ، وفى يده أن يتجوز وأن يترخص وأن يتساهل وأن يترفق ولا لوم ولا تثريب عليه فى ذلك ، وهذا سيجنبه الكثير من العنت والمشقة ، ولكن من قال إن عمر يبحث عن الراحة والهدوء والدعة ؟ أنه يريد أن ينفذ القيم والمبادئ ويطبقها ويطوع الواقع لها ، أو قل هو لا ينظر إلى الواقع ولا يعطى له أى اعتبار ، إنه يتغلغل فى ظواهر الشرع ليصل إلى الروح إلى الحكمة إلى الجوهر .

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد ٤٦ .

وهذا يفسر الكثير من المواقف والكثير من قرارات عمر حتى ما خالف فيها نصا صريحا في القرآن ، وخالف فيها رسول الله ﷺ ، مثل قضية (المؤلفة قلوبهم) وعدم التسوية في العطاء بين المسلمين .

"فكان عمر يجتهد في تعرف الحكمة التي نزلت فيها الآية ويحاول معرفة المصلحة التي جاء من أجلها الحديث ، ويأخذ بالروح لا بالحرف ، وعلى ضوء هذه وتلك يسترشد عندما يفصل في المسألة المعروضة عليه ، وكان عمر جريئا في العمل بالرأي ، ولو خالف ذلك بعض النصوص والقواعد التي كانت معروفة ومعمولا بها من قبل ، ليكون الحكم ملائما لأحوال المجتمع الإسلامي الجديد"[1]

وقد استمد عمر تكامل شخصيته ، وحافظ عليها من الانفصام والتناقض والفساد من خلال موقفه القوي والصلب من الواقع ، فكل الأمراض النفسية والخُلقية والتي من شأنها تقويض شخصية الإنسان واردة إليه من الواقع ، فحينما يكون الواقع أقوى من الشخصية أو حينما تصاب الشخصية بوهن أو ضعف عن أن تواجه الواقع فستجد الفساد والتفسخ يستشري في الشخصية بسرعة رهيبة

والذي جعل لشخصية عمر هذا النمط أو هذا القوام أو المزاج تلك المنظومة المتماسكة والمتكاملة من القيم والمبادئ ، والتي لم يكن يؤمن بها فحسب إيمانًا يتذبذب مع الأيام أو مع الظروف قوة أو ضعفا ، ولكن تلك المنظومة امتزجت بكيانه امتزاجًا عجيبًا إلى الدرجة التي تجعلك لا تستطيع أن تفرق بين عمر كإنسان من لحم ودم وبين القيمة المجردة التي يجسدها عمر ، ولا تستطيع أن تفصل بين عمر العادل والعدل ، فقد أصبح الأمران أمرًا واحدًا أو لنقل إن عمر نجح نجاحًا منقطع النظير أن يمنح القيم والمبادئ حياة ومكانًا

---

١ - القضاء في الإسلام بوجه عام وفي مصر بوجه خاص . د/ عطية مصطفى مشرفة ١٠٤ .

ووجودًا وتجسدًا فى الواقع ، وإن عمر استمد من القيم والمبادئ هذا التجرد والترقى والسمو والعلو عن تعاريج الواقع وتناقضاته .

"فالشخصية المثالية هى الشخصية التى تسيطر على الواقع بما لديها من صور ذهنية ومن تقييمات ، وليست هى الشخصية التى تخضع لمتطلبات الواقع . من هنا فإن الشخصيات المثالية التى ترى أن التكامل لا يتأتى لها إلا بالتلحف بما يعتمل بدخائلها من فكر وتقييم ، كثيرا ما تصطدم بالواقع من حولها ، ولكن مهما حاول الناس من حولها ثنيها عما تستمسك به ، فإنها لا تلين وتعتقد أن ما يطلب منها التنازل عنه هو جوهر كيانها وليس قشور ذلك الكيان . فالهوية الشخصية لدى المثالى ... وهى الهوية التى تجعلها شخصية متكاملة – هى الهوية الذهنية الوجدانية والمتمثلة فى المفاهيم المجردة من جهة وفى تقييماتها التى لا تخضع للتغيير أو التعديل من جهة أخرى" [1]

ولكن إذا كان عمر متمسكا بالقيم والمبادئ ، ولا يساوم ولا يقبل بدائل ولا يتزحزح ولا... ولا ... ألا يمكن اعتباره شخصية جامدة ثابتة لا تعرف المرونة أو المناورة أو الدهاء أو حتى المكر حينما يسخر لصالح الحق ؟

الدهاء والمكر والمناورة والتلون أمور يلجأ إليها الإنسان خضوعًا لمتطلبات الواقع وسائل يستعين بها الإنسان للتغلب على مشكلات ظهرت له أو سوف تظهر ، أو أدوات يتخذها الإنسان لعدم الاصطدام بالقضايا والمشاكل الواقعية يرجئ الاصطدام إلى حين حتى يجد الوقت المناسب ، أو ينتهز فرصة تمكنه – فى ظروف معينة – من التغلب على تلك المشكلات .

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٦ .

إذن تلك الأساليب دليل على قصور الشخصية ، أو نقص فى صلاحيتها للوصول إلى هدف أو غاية ، أو دليل على عدم التوازن والتعادل بين الشخصية والواقع ، فحينما يقول (معاوية) : (والله لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إن شدوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها) هذا القول يدل على مدى ذكاء ودهاء ومكر شخصيته ، وأنه يدرك كيف يتكيف ويتناغم مع الواقع ، وكيف يحافظ على تلك العلاقة وإن كانت فى غاية الوهن والضعف . وأنَّى له الحفاظ على تلك العلاقة بغير التنزل والخضوع والاستجابة لما يتطلبه الحفاظ على تلك الشعرة وتقديم تنازلات والإقدام على تضحيات ؟!

أما عمر فلا يلجأ إلى الدهاء أو المكر أو المناورة ، لأنه ليس فى حاجة إلى ذلك لا تلجئه الضرورة إلى هذا ، لأن ذكاءه من نوع فريد : "وهو ذكاء الفطرة السوية والتجربة اليقظى ، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة ، ولا المماراة ... إنما يتحرى الحق وينفذ إلى اللباب المستتر فى مثل لمح البصر أو هو أقرب" [1]

إنه كعاصف يقتلع كل ما يحول بينه وبين الوصول إلى غايته ، كشلال كاسح يجرف كل ما يمنعه أن يصل إلى هدفه فى الوقت وفى المكان الذى حدده سلفا وكما قال عن نفسه : "لستُ بالخب ولكن الخب لا يخدعنى "وهى عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه فهو ليس ذكاء عدوانيا ... ولا ذكاء مراوغة وختل ، ليس ذكاء هجوم . بل .... ولا ذكاء مقاومة .

إنما هو ذكاء تفوق ، ينفجر من شخصية متفوقة ، ويعمل فى خدمة مبادئ متفوقة

هو إذن ليس ذكاء معارك ، بل ذكاء بطولات وليس ذكاء مدرسيًّا ، بل ذكاء خلاقا مبدعا ، وهذا أيضا من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنص ويذعن للأثر ثم هو مع هذا

---

١ - بين يدى عمر – خالد محمد خالد – ١٣١ .

صوال جوال . يستشرف الغيوب ويكاد أحيانًا يسبق الوحى مما جعل رسول الله يقول مشيدًا بهذه الفطنة الخارقة . (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)[1]

وقال (المغيرة بن شعبة) مخاطبا (عمرو بن العاص) :

"أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئا فيلقنه عنك ؟ والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع" .

هذا الثبات على المواقف والذى لا يتغير تحت أى حجة من الحجج . وهذا التمسك بالقيم والمبادئ والمعايير والذى لا ينثنى تحت أى مسمى من المسميات يوحى بأن عقل عمر محدود ، وشخصيته ضحلة "إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين ، الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائض ، ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل الجلى فإذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غرض مائل لا تنحرف عنه قيد شعرة كأنه جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ، ولا يلتفت إلى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائق دونه"[2]

ولكن هذا لمن ينظر نظرة عجلى ينقصها النفاذ إلى الباطن .. إلى الجوهر فهذا الثبات على المواقف والتمسك بالقيم راجع إلى دينامية وحركة فوارة لا تتوقف فى الداخل كل الملكات تعمل ، هناك معمل ، ورشة عمل تتلقى المعلومات الكثيرة وتدرس وتفحص وتقارن وتفاضل وتوازن ثم تستخلص النتائج وتصل إلى قرار حاسم لا رجعة فيه ، ولا أحد

---

١ - بين يدى عمر - خالد محمد خالد - ٣٣٣ .
٢ - عبقرية عمر - عباس محمود العقاد : ٥١ - ٥٢ .

يستطيع رد هذا القرار إلا صاحبه ، إن ظهر أن به اعوجاجا أو به خطأ ، يعاونه فى ذلك عقله وحدسه وما قد يسره الله من إلهام "فالشخصية وفق هذه النظرية المثالية تتسم بالثبات والاستاتيكية الخارجية ، بيد أنها تتمتع بدينامية داخلية عقلية روحية هى دينامية الكشف والإلهام . فالمثالى يؤمن بأن لديه قوامًا عقلانيا روحيا مستقلا عن الواقع الخارجى ليس بحاجة إلى استقدام خبرات واقعية من الخارج بل إنه يستطيع أن يغوص فى آفاق عقلانية بعيدة الغور فيأخذ عنها بأعمال العقل أحيانًا ، وبالحدس أحيانا ثانية وبالإلهام أحيانا ثالثة"[1]

- عقل
- حدس
- الهام

يقود أمة متصاعدة نحو الشكل الإمبراطورى بكل ما يشمله هذا الشكل من تعقد أجهزته ، وتعدد إمكاناته ، جيوش فى كل حدب وصوب قواد أكفاء يحققون انتصارات تشبه المعجزات ، حدود الدولة تتسع باطراد ، وشعوب مختلفة المشارب والطباع تدخل فى الإسلام ، ابتكار أنظمة ، وابتداع أجهزة ، تشريع قوانين ودساتير ... ونسأل ما مؤهلاته العلمية ؟! ما الشهادات أو الإجازات التى حصل عليها ؟!

من أين استمد هذه الكفاءة الفائقة والعبقرية النادرة ؟

فى كل المشكلات والمعضلات التى واجهها وواجهته ، وفى كل قراراته حالفها الصواب ووافقها السداد ... مراقبة واصبة لكل عماله القريب والبعيد ، ومحاسبة مستمرة

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٦ .

وفورية ، بالقسطاس المستقيم . الأوامر والقرارات التى يصدرها تنفذ حرفيا من قبل عماله وموظفيه . فالمقرر هو عمر ... والآمر هو عمر .

إيمان واقتناع من كل فرد فى جهاز الدولة بقدرته الفائقة وكفاءته وحسن سياسته حتى تلك القرارات والأحكام التى تغضب وأغضبت البعض يتقبلونها عن اقتناع، مدركين أنه الحاكم الذى ينظر فى المقام الأول إلى المصلحة العامة وما فيه خير للإسلام المسلمين العنصر الشخصى لا وجود عنده ولا اعتبار لديه ، التنزه عن الهوى ، الموضوعية ، التجرد من العواطف التى من شأنها أن تدفع صاحبها إلى المجاملة والمحاباة لأناس على حساب أناس آخرين ... ويجوز على الذين أحاطوا بعمر وعايشوه وعرفوه وخبروه أن تمتلىء قلوبهم نحوه بكل المشاعر الإنسانية إلا شعور واحد ... محال أن تجد أحدًا ينظر إلى عمر من خلاله أو حتى يضمره له وهو شعور الكراهية "عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب إنسان لأنه كان على عظم (شخصيته) مبرأ من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء والخصوم ، وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا (العنصر الشخصى) ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم صوالاً عليهم ، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤوسهم يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء" [1]

---

١ - عبقرية عمر - عباس محمود العقاد ٢٣٥ .

حياة حافلة بالفتوحات والانتصارات والإنجازات والابتكارات والتأسيس لأعظم دولة عرفتها الإنسانية قامت على الحق والعدل ، لا يستمد حاكمها قوته من جيشه أو مكره ودهائه أو أجهزته الكثيرة والمتعددة ، وإنما يستمده من الشرع .

علام اعتمد عمر في كل هذا .

- عقل .
- حدس .
- إلهام .

هل المسألة عنده تدرج من العقل إلى الحدس إلى الإلهام ؟ هل هناك مسائل تعرض عليه ، فتارة يستخدم عقله وأخرى يستخدم حدسه وثالثة إلهامه ؟

أم أن الأمور الثلاثة متجمعة في شخصية عمر ، فهو عقلاني حدسي إلهامي ؟

أم أن الأمور الثلاثة هي أمر واحد ، ونحن من صنفنا هذا التصنيف وجزأنا هذا الكل ؟ فالعقل يشتمل على الحدس والإلهام ، والحدس يشتمل على العقل والإلهام ، والإلهام يشتمل على العقل والحدس ؟

تعريف الحدس (intuition) في علم النفس يدل دلالة واضحة أن الأمور الثلاثة ليس بينها فاصل حاسم يفصل كل أمر عن الآخر فهي مرتبطة ارتباط الجزء بالكل ، أو قل انبثاق الوحدة المتكاملة عن الكثرة المتعددة .

- "الحدس عبارة عن قدرة ذهنية معينة يصل الحائز عليها إلى الحقائق دون أن يمر في سلسلة من المشاهدات التي يستنتج منها النتائج التي تفضي إليها

- وهناك من يعتقدون أن الحدس عبارة عن تلخيص أو صهر للخطوات التى يمر فيها الشخص العادى لدى ملاحظته للأشياء والأحداث فالحدس بهذا الفهم عبارة عن حذف للعمليات الذهنية الفرعية والاقتصار على العمليات الذهنية الرئيسة .
- ومن الناس من ينظرون إلى الحدث باعتباره نوعًا من الإلهام فهو فى نظرهم إلهام عقلى وليس إلهامًا روحيا .
- ومن الناس من يعتقدون أن الحدس عبارة عن غريزة عقلية تتجمع فى نطاقها الخبرات السلفية فبمقتضى هذه النظرة فإن خبرات أسلافنا القريبين والبعيدين تتركز وتتلخص فى بؤرة معينة هى تلك الغريزة الحدسية التى إذا ما تفتقت وتفتحت ، فإنها تجد لها متنفذا عمليا وحياتيا فى أنشطة المرء الذهنية .
- ومن الناس من يعتقدون أن الحدس عبارة عن نشاط ذهنى مرتفع المستوى يتمتع به أصحاب الذكاء المرتفع جدًّا فالشخص الذكى جدًّا لا يكون فى حاجة إلى المرور خطوة فخطوة فى أنشطته الذهنية ، بل هو يخطو خطوات سريعة وواسعة ، ويتمتع بالقدرة على عمل قفزات واسعة عقلية تجعله يصل إلى النتائج مباشرة دون ما حاجة إلى اتباع سلسلة التفكير التى ينحو وفقها تفكير الشخص العادى .
- أخيرا فإن هناك من الناس من يعتقدون أن الحدس قدرة مغروزة فى الطبيعة البشرية بل وفى الطبيعة الحيوانية"[1]

كل تلك الآراء أو التعريفات ، تعطى مؤشرا أنهم يتحدثون عن شىء واحد يتكون من ثلاثة عناصر ، وهذا ينطبق على عمر .

فنستطيع أن نقول إن شخصية عمر عقلانية .

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٥٥ .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر حدسية .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر إلهامية .

ونستطيع أن نقول إن شخصية عمر تجمعت فيها الأمور الثلاثة ، أو أن شخصية عمر لها جوانب ثلاثة . ولديك سيرة عمر ، ومواقفه وأفعاله وتصرفاته وقراراته وأحاديثه وكتاباته ، تشهد على ذلك ، ونستطيع أن نصنف ما هو عقلى وما هو حدسى وما هو إلهامى ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نفصل جانبًا عن الجانبين الآخرين فهناك كما قلنا تكامل .

على هذا فشخصية عمر شخصية متكاملة وصلت إلى درجة عالية من التكامل وامتلأت وتشبعت بتلك الصفة ، حتى إنها أرادت أن تفيضها على الكون وعلى من حولها فكل من يقترب منها أو تقترب منه تريد أن تمنحه تلك الصفة فهى لا تكتفى أن تحوذ على تلك الصفة ولكنها تريد أن تشيعها فى الواقع حولها إنها كالنار التى تشعل كل ما يقترب منها أو تقترب منه وتحوله إلى نار مثلها ولكنها نار لا تحرق ولا تدمر بل تصقل وترتقى وتسمو بالإنسان درجات علا "فالشخص الذى يحظى بشخصية متكاملة – وفق هذه النظرية – هو ذلك الشخص الذى آمن وأيقن أن وجوده الحقيقى لا يحده ذلك الجسد بل إن وجوده يتمثل جوهرى فى وجود رُوحه ، وكلما ترعرعت تلك الروح وانتعشت وتغذت بالغذاء الروحى ، كان وجوده إذن أقوى ، ومهما تعرض جسده للضعف أو المرض ، ومهما لقى من عذاب أو جوع أو تعرض للبرد أو الحر أو حتى للكى والضرب ، ومهما حرم من أطايب الحياة أو ارتمى فى حمأة الفقر فإنه يظل قويا بروحه وموجودًا بذلك القبس العلوى الذى لا يقبل البلى طالما أنه يجد الرعاية والعناية متجردًا من الهوى ومرتفعًا إلى

آفـاق الوجـود الحقيقـي ، فـيرى مـا لا عـين بشـرية تـرى ، ويسـمع مـا لا أذن بشـرية تسـمع ويحظى بما لا يستحوذ عليه قلب بشر"[1]

من أجل هذا فشخصية عمر شخصية مرهقة ، متعبة لكل من اتصل بها وتعامل معها ، لأنها تكلف المحيطين بها صعودًا رهقًا ، وتشق عليه أن يرتقى رقيها ويسمو سموها ، ويتكامل تكاملها ، فلا أحد يطيق أن يأكل كما كان عمر يأكل ، ولا أحد يطيق أن يعيش كما عاش عمر ، ولا أحد يطيق أن يعمل كما عمل عمر والدليل على ذلك أن بعض أصحابه أشفقوا عليه من شظف الحياة التى يحياها وخشوا أن يواجهوه ، فتوسلوا بابنته (حفصة) أم المؤمنين رضى الله عنها فجاءته فقالت له : "يا أبتاه ، ويا أبتاه ، يا أمير المؤمنين إن ناسًا من قومك كلمونى فى أن أكلمك فى أن تلين من عيشك . فقال لها : يا بنية غششت أباك ونصحت لقومك".

ودليل آخر على صعوبة ومشقة تلك الحياة التى كان يحياها ، رأى امرأتين فيه وهو أمير المؤمنين ؛ أما الرأى الأول فهو لـ (أم إبان بنت عتبة) وكان عمر خطبها ولكنها رفضته.. تقول : "إنه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر إلى ربه بعينه"

والرأى الثانى لأم كلثوم بنت أبى بكر وكان قد خطبها ولكنها رفضته أيضا تقول "إنه خشن العيش شديد على النساء"

وكل هذه براهين ودلائل على عظمة الشخصية ، وعلى عظمة ما كان يدعو إليه ويحمل الناس عليه ، فهو دليل على قيمة هذا الشىء وكما يقال :

(الثواب على قدر المشقة) ، وأى شىء يدعونا إلى الراحة والدعة والاسترخاء فهى دعوة لا تليق بالإنسان الشريف : "فالدعوة التى تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم

---

١ - الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – ٤٤ .

والدعوة التى ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هى الدعوة العظيمة فى أصدق مقاييسها وهى التى تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى وحسبها ذلك (برهانا نفسانيا) لا نهتدى إلى خير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا وانتقل بنا إلى طور فوق طورنا . فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نمود ليكلفه عنتًا عند الولادة وعنتًا عند التسنين ، وعنتًا عند المراهقة وعنتًا عند بلوغه سن الرشد والاستقلال .

وإن لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة فى كراهته وهى فى الحقيقة داء يمنع النماء .

فمرجع (البرهان النفسانى) الصادق فى تقدير العظمة أنه سبيل الفداء فى طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب وليس له من ضمائر النفس برهان" [1]

نعم ... إنه أصدق برهان نفسى على مدى نبل تلك الشخصية التى كلفت من نفسها عسرًا وعنتًا ومشقة ، وكان فى طوقها أن تتخذ من الأمور أيسرها وألينها وأسهلها، وحملت من حولها - راضين ومقتنعين - أن يتحملوا هذا العسر والعنت والمشقة وكان فى وسعه أن يجنبهم وطأة المراقبة الواصبة ، ودقة الحساب العسير ولكنه شاء لنفسه أمرًا وشاء للناس نفس الأمر حتى يجتمع هو وهم على أمر واحد فيه الرضا لله ولرسوله الكريم .

وكما يقول المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم	وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها	وتصغر فى عين العظيم العظائم

---

١ - عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد ٥٧ .

لدى عمر عقيدة قوية ، إنه خلق ليؤدى دورًا فى تلك الحياة ، وأنه مازال مرتبطا بالوجود والحياة طالما هناك بقية من هذا الدور لم يؤد ، أما وقد انتهى من أداء دوره أو كانت هناك عوائق تعوقه عن أداء هذا الدور فليس هناك مبرر للبقاء فى هذه الحياة .

الحياة بلا دور يؤدى على أكمل وجه لا يعرفها عمر .

الوجود بلا هدف يحقق فى أتم صوره لا يفهمه عمر .

والحياة بلا دور والوجود بلا هدف نوع من العبث ، وحاشا لعمر أن يكون عابثا ولو فى لحظة من لحظات وجوده .

وكما قلنا فى فصل سابق أن الدور الإنسانى – مهما عظم – موقوت بوقت ومحدود بحدود ، أكثر من يعرف هذا الوقت الذى ينتهى عنده الدور ، وتلك الحدود التى تحد وتحول بين أداء الدور هو صاحب الدور نفسه ، وهذا شىء طبيعى ، ولابد أن يعترف به الإنسان أمام نفسه أولا ، وأمام الناس ثانيا يحتم هذا الاعتراف نبل وشرف وكرم الشخصية .

استقالة عمر :

وإذا كان الموظف الصادق أو أى صاحب دور يذهب إلى رئيسه مستأذنًا فى تقديم استقالته ، وللرئيس أن يرفضها أو يرجئها إلى حين أو يقبلها ... فلمن يذهب عمر وهو الحاكم والخليفة وأمير المؤمنين ؟

ليس من أحد فوقه إلا الله .

ولا أحد يعلم حاله حق العلم سوى الله .

ولا أحد يعلم ما توسوس به نفسه غير الله .

إذن فليتجه إلى الله .

"وكان ﷺ ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما يستطيع أداءها ثم لا معنى لها إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء ودعا الله : "اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك" [1]

فرغ من أداء فريضة الحج ، وكأنه فرغ من أداء دوره المكلف به ، استلقى على الأرض رفع يديه إلى السماء ، يناجى ربه .

- كبرت سنى
- ضعفت قوتى

إحساس صادق أنه لا يستطيع أن يؤدى دوره فى أكمل صورة لا يرتضى غير الكمال بديلا ، ولا يبتغى عنه حولا ، أما وهناك عوائق تعوق عن أداء الدور الكامل عمر الشاب أو الرجل الذى تتفجر نفسه نشاطا وحيوية ، الذى يسير ليلاً نهارًا منفقدا الرعية زاجرًا ... واعظا ... منبهاً .... موبخًا ... ضارباً ... قاضيا ... حاكما ... آمرًا ... لم يعد عمر القوى .. الجبل الأشم الذى تنصهر أمامه أعتى القوى وأشدها عنادًا .. لم يعد .

- انتشرت رعيتى .

إحساس صادق بالمسئولية ، شعور جارف أنه فى مأزق ، ومبعث هذا الشعور أنه يبتغى الكمال فى مهمته وفى رسالته ، لا يستطيع أن يكذب على نفسه ، ولا يستطيع أن يكذب على رعيته ، وإن استطاع فهل يستطيع أن يكذب على الله ؟

والخروج من هذا المأزق .

---

١ - عبقرية عمر – عباس محمود العقاد ٢٣٧ .

- **فاقبضنى إليك :**

لا مبرر للوجود ، لقد استنفدت كل ما لدى من قدرة وطاقة ، وأديت دورى ولكن الخروج من الوجود الواقعى ليس على أى صورة ولا على أى كيفية .

- **غير مضيع ولا مفرط :**

فالذى عاش طوال عمره يجاهد ويكافح ويناضل فى سبيل أداء رسالة ، ويصل بهذا الأداء إلى الكمال أو قريب منه ، لا يرتضى أن تكون خاتمة تلك الحياة إلا خاتمة تليق به حياة لم يقدم فيها على إفراط ولا تفريط .

- **اللهم ارزقنى الشهادة :**

قمة وذروة الكمال فى الحياة الإنسانية أن تختتم بالشهادة ، وقد قلنا فى فصل سابق "ليس من نهاية تتوافق وعظمة تلك الحياة وجليل صاحبها سوى الشهادة .

- **واجعل موتى فى بلد رسولك :**

أمنية على الله ... إنه لم يحب إنسانًا كما أحب رسول الله ، لقد عاش معه حياة مديدة حافلة ذاق فيها حلاوة الحياة مع النبى وأنس القرب ومتعة الجهاد ويريد أن يذوق حلاوة الموت فى بلد رسول الله ، وأنس الدفن بجواره ومتعة الصحبة فى الحياة الآخرة .

بدون خاتمة

يحار المرء حين يسأل نفسه : بم ستختم هذا الكتاب ؟

لقد انتابنى شعور غريب وأنا أكتب هذا الكتاب عن عمر ! أنه لن يقدر لى إنجازه ولن يأتى اليوم الذى أكون قد كتبت آخر كلمة فيه ؛ لأنى أدركت أن هذا الأمر لا أملكه وليس لى إرادة فيه ، لأن معنى انتهاء الكتاب أنى قد وفيت الغرض الذى من أجله كتبت وأديت الغرض الذى قصدت ... وأنى قد جليت غامضًا أو كشفت خافيا ، أو وضحت مبهمًا . وأى من تلك الأمور لم أصل فيها إلى أرب أو غاية على مدار الكتاب .

ولقد شعرت إنى وسط ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج ، وأصدقك القول وأصارحك النية ... أنى فكرت فى التراجع وكنت قد كتبت شيئا ... حينئذ سخرت من نفسى وقلت : إن من أعاجيب القدر ، وتقلبات الزمن ، أن يتاح لإنسان مثلى - ولغيرى أن يكتب عن شخصية عمر ، وأن أقرن به ، وأن يكتب اسمى تحت اسمه على الغلاف !! أين كل هؤلاء الذين كتبوا عنه ، وحاسبوه ، ونقدوه ، وغضبوا عليه أو رضوا عنه ... أين هم منه ؟!

ولكن كما قلت إنها أعاجيب القدر ، وتقلبات الزمن .

إن من فيض عظمة العظماء - وفى مقدمتهم عمر - ومن نبلهم وكرمهم وشرفهم ، أن أتاحوا وسمحوا - عن سخاء - بالكتابة عنهم والاقتراب منهم

وهذا جانب آخر من جوانب عظمة عمر - وكل جوانب عمر عظيمة - أن أتاح لى الكتابة عنه ، وأستميحه عذرًا ، وألتمس صفحه وغفرانه ، لأن الكتابة عنه نوع من العجز

والتقصير ، نوع من تجاوز القدر وتعدى الحدود كمال قال شوقى – رحمه الله – وهو يمدح رسول الله ﷺ :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى .. بمدحك بيد أن لى انتسابا

ولن أقول كما قال شوقى ، إن بيننا وبين عمر صلة نسب ، لأن تلك الصلة ظلت تضعف وتضعف على مرور الزمان ، وضللنا عنها ضلالا بعيداً ، وبأيدينا – إن شئنا – أن نعيدًا ما انقطع ، وأن نصل ما انفصل ، إذا قوى فى ضمائرنا أننا أبناء هذا الرجل العظيم فكرا ، ومواقف ، وأفعالا ، وإحساسًا ، وإذا صدقت نياتنا أن نسير على نهجه – ما وسعنا ذلك ، وصحت إرادتنا أن نحقق بعض ما حققه ، ونصل إلى بعض ما وصل إليه .

وإن نجح الكتاب أن يذكر البعض بوجود تلك الصلة من النسب وأنها فى حاجة إلى الرعاية من جانبنا ... يكون الكتاب قد نجح بعض النجح ، وصدق بعض الصدق ، ووفى بعض التوفية .